الأمن الفكريُّ في القرآن والسُّنة
مفهومه ومرتكزاته ومعوِّقاته

◆ د. محمد تهامي دكير[1]

■ **خلاصة**

اتَّسع مفهومُ الأمنِ في الدَّولة المُعاصرة ليَشملَ أبعادًا جديدةً، مرتبطةً بالمُتغيِّرات الحديثة والتحدِّيات المُعاصرة؛ حيث برزَ من بين هذه الأبعاد: «الأمن الفكريُّ»، الذي ظهرَت أهمِّيتُه وخطورتُه؛ لارتباطه بباقي الأبعادِ الأخرى: السِّياسيّة والاجتماعية والعسكريّة.. إلخ.

في هذه الدِّراسة مُحاولةٌ للكشف عن مفهوم «الأمن الفكريِّ»، من خلال القرآن الكريم والسُّنة النبويّة، في ظلِّ ما يتعرَّضُ له الإسلامُ من تشكيكٍ في منظوماته العقائديّة والتَّشريعية والأخلاقيّة، وتحدِّيات العَولمة الثَّقافية والإعلاميّة الغربيّة؛ حيثُ جرى الحديثُ في المحور الأوَّل عن: مفهوم الأمنِ الفكريِّ في المَنظور الإسلاميِّ، ومُرتكزاته الأساس: القرآن، والسُّنة والعَقل، وفي المحور الثاني جرى عَرضُ أهمِّ مُعوِّقات هذا الأمن، وكيفيّة مواجهتها، من خلال تعاليم القرآن الكريم وإرشادات السُّنّة النَّبوية الشَّريفة. مثل: تَعطيل العَقل، والتَّقليد الأعمى للآباء، الغُلوّ، واتِّباع الظنِّ..إلخ. وقد خلصَت الدِّراسةُ إلى أنَّ «اتِّباعَ هُدى الله» هو الكفيلُ بتَحقيق الأمنِ الفكريِّ على المُستويَينِ الفرديِّ والمُجتمعيّ.

الكلمات المفتاحية: القرآن - الأمن الفكري- معوقات الأمن- تعطيل العقل- الغلو- التقليد الأعمى.

١ - مدير التحرير.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ [الأنعام:٨٢]

مدخل

عبرَ العُصور، شكَّلَ الأمنُ الهاجسَ الأكبرَ للمُجتمعات والدُّول، والأنظمة السِّياسيّة الحاكمة على وجه الخُصوص؛ حيثُ ارتبطَ الاستقرارُ السِّياسيُّ والحِفاظُ على السُّلطة بالقوّة والقُدرة على مُواجهة التَّحديّات الأمنيّة الدّاخلية والمَخاطر الخارجيّة، وقد ارتبطَ الأمنُ في الحالتَين بالقوّة الماديِّة، وخُصوصًا العسكريّة. لكنَّ هذا المفهومَ التَّقليديَّ للأمن سرعانَ ما سيتطوَّرُ بشكلٍ مُتسارعٍ معَ ظهور الدَّولة الحديثة في الغرب وتطوُّرها، ليتَّسع، مُتجاوزًا الأمنَين السِّياسيَّ والعسكريَّ؛ حيثُ سيَشملُ أبعادًا ومَجالات أخرى، ارتبطَت بالتطوُّر الهائل الذي حقَّقتْه الحضارةُ الغربيّةُ على مستوى الحياة المَدنيّة، والتَّغيير الذي طالَ طبيعةَ الدَّولة، والنِّظامَ الاجتماعيَّ السياسيَّ فيها، مضافًا إلى التقدُّم العلميِّ المُذهل والتطوُّر الصِّناعيِّ الذي طالَ جميعَ مرافق الحياة؛ حيث ظهرَت تحدِّياتٌ جديدةٌ لم تَعرفْها البشريّةُ من قَبلُ.

كلُّ ذلكَ كان له انعكاسُه على العلاقات الدَّوليّة، خصوصًا مع نشوب الحروب العالميّة المُدمِّرة، وما تَبعَها من حربٍ باردةٍ بين معسكرَين سياسيَّين، تَحكَّما في مصير العالَم بعدَ الحرب العالميّة الثّانية، وما نجمَ عن ذلك من استقطاب وحروب أهليّة وصراعات دمويّة، كشفَت عن تخلُّفٍ وفقرٍ ومَجاعاتٍ وأوبئةٍ وانتهاكاتٍ لحقوق الإنسان، في أكثرَ من منطقةٍ في العالَم..!

وما رافقَ ذلكَ كلَّه، من ثورةٍ مُذهلة في مجال الاتِّصال والتَّواصل الإنسانيِّ، جعلَ الكرةَ الأرضيّةَ تَبدو كأنَّها قريةٌ صغيرةٌ، انهارَت وتحطَّمَت فيها الحدودُ الجغرافيّةُ والسِّياسيّةُ والثَّقافيّة.. إلخ، كاشفةً عمّا سيُعرف بالعولَمة؛ حيثُ ظهرَت تحدِّياتٌ خَطيرةٌ - باعتبارها انعكاسًا سلبيًّا لها - شملَت العالمَ

بأسره، تغيَّرَ معَها مفهومُ الأمنِ ليَتجاوزَ ضمانَ استقرارِ مُؤسَّساتِ الدَّولةِ واستمرارِها، إلى البحثِ في سُبلِ حمايةِ مَنظومةِ القِيَمِ والمَبادئِ والرُّؤى الفكريّةِ والفلسفيّةِ والسِّياسيّةِ والأيديولوجيّة، التي يَقوم عليها تجانُسُ المجتمعِ وأنماطُ عيشِه وسلوكِه ورُؤيتِه الحضاريّة. كما اتَّسعَ مفهومُ الأمنِ ليَشملَ أبعادًا جديدةً؛ حيثُ بدأ الحديثُ في الأدبيّاتِ السِّياسيّةِ الغربيّةِ عن الأمنِ: الاقتصاديِّ، والغذائيِّ، والمائيِّ، والثَّقافيِّ والإعلاميِّ، والأمنِ السيبرانيّ..إلخ. مضافًا إلى المفهومِ التَّقليديِّ المُتعلِّقِ بالأمنِ السِّياسيِّ والعَسكريِّ..[1].

وقد ظهرَ بدرجة واضحة مَدى الاهتمامِ بـ «الأمن الفكريِّ» أو الثقافيِّ والإعلاميِّ؛ حيثُ رأينا كيفَ كانتْ دولُ المُعسكرِ الاشتراكيِّ- سابقًا- تتَّخذ بعضَ الإجراءاتِ التي تَحول دونَ الانتشارِ أو التَّرويجِ للقِيَمِ اللِّيبراليّةِ، وكذلكَ الأمرُ بالنِّسبةِ للمُعسكرِ الرَّأسماليِّ، الذي لم يَأْلُ جُهْدًا في مواجهةِ الأيديولوجيّاتِ الاشتراكيّةِ والشُّيوعيّة، كما رأينا كيفَ استنفرَتِ الدُّولُ الأوربيّةُ كلَّ قُواها الإعلاميّةِ والأمنيّةِ لمُواجهةِ ظاهرةِ انتشارِ الدِّينِ الإسلاميِّ، والالتزامِ ببعضِ شعائرِه وعباداتِه داخلَ هذه الدُّول (ظاهرة الحجاب مثلاً)، بحُجّةِ الدِّفاعِ عن قِيَمِ الحرِّيةِ والدِّيمقراطيّةِ والجمهوريّة، ومُواجهةِ ما أسمَوهُ بـ «الإرهاب الإسلاميِّ؟!» الذي بدأ يُهدِّدُ نمطَ الحياةِ في أوروبا والغَرب !!.

وعليه، بدأ الحديثُ – على نطاق واسع - عن «الأمن الفكريِّ» في الأدبيّاتِ السِّياسيّةِ أو المُتعلِّقةِ بالعلاقاتِ الدَّوليّةِ في الغربِ وفي العالمِ بأسرِه، وأهمِّيتِه وخطورتِه، لتأثيرِه على باقي مَجالاتِ الأمنِ الأخرى، بعدَما تبيَّنَ أنَ التأثيراتِ الأيديولوجيّةَ والفكريّةَ العابرةَ للحدودِ - مثلاً - والحربَ الإعلاميّةَ المُنظَّمةَ، قد تُؤثِّرُ سلبًا على الأمنِ السِّياسيِّ والاقتصاديِّ والمَعرفيِّ والفكريِّ.. وباقي المجالاتِ الأخرى في المجتمع، وهذا الأمرُ يُعرِّضُ ما يُسمَّى بالهويّاتِ الوَطنيّةِ وثوابتَها، والأمنَ القوميَّ، للخطرِ؛ حيثُ بدأ التَّفكيرُ في وضعِ استراتيجيّاتٍ وإجراءاتٍ مُتعدِّدةِ الأبعادِ، لمُواجهةِ هذه المَخاطرِ، حمايةً للمجتمعِ وتَحقيقًا لاستقرارِه.

أمّا بالنِّسبةِ للعالمِ الإسلاميِّ، فقد كان في صلبِ هذه المُتغيِّراتِ، وخصوصًا لجهة التأثُّرِ السَّلبيِّ

١ - انظر حول التطور الذي عرفه مفهوم الأمن: د. إبراهيم بن محمد الفقي، الأمن الفكري: المفهوم- التطورات – الإشكالات، ص ١١.

بها، لأنَّ معظمَ جغرافيته السِّياسيّة قد خضعَت للاستعمار العسكريِّ الغربيِّ المباشر، وتعرَّضَت ثرواتُه الطَّبيعيّةُ والاقتصاديّةُ للنَّهب المُنظَّم، كما عانَت شعوبُه - ولا تزالُ- من الغزو الفكريِّ والإعلاميِّ والقيَميِّ الغربيِّ، والعولمة الثَّقافية، التي هدَّدَت مَنظوماته العقدَيَّة والقِيَميّةَ والتَّشريعيّةَ والخُلُقيّة والعُرفيّةَ. مضافًا إلى تحدِّيات داخليّة لا تقلُّ خطورةً في تداعياتها السَّلبيّة عن أمن واستقرار المُجتمعات الإسلاميّة، أخطرُها انفجارُ الصِّراع الدَّمويِّ والتَّنازُعُ والاختلافُ بين المُكوِّنات: الإثنيّة والاجتماعيّة والمَذهبيّة والدِّينيّة داخلَ الأمّة الإسلاميّة، أي إنّ الأمنَ قد تعرَّضَ، في جميع أبعاده، في العالَم الإسلاميِّ، إلى الخطر على المُستويَين الدّاخليِّ والخارجيِّ، الفرديِّ والجماعيّ.

من هنا، ظهرَت كثيرٌ من الدِّراسات والأبحاث العلميّة المُهمّة، وعُقدت مؤتمراتٌ وندواتٌ للحديث عن ضرورة الاهتمام بـ «الأمن الفكريِّ» في العالَم الإسلاميِّ، والكشف عن المخاطر والتَّحديّات التي تتعرَّضُ لها الشُّعوبُ والدُّولُ العربيّةُ والإسلاميّة، وسُبلِ مُواجهتها والتصدِّي لها.

في هذه الدِّراسة مُقارَبةٌ تأصيليّةٌ لهذا المفهوم المُعاصر «الأمن الفكريِّ»، من خلال القرآن الكريم والسُّنة النبويّة، في إطار تَجديد الفكر الإسلاميِّ لاستيعاب المَفاهيم المُعاصرة، التي قد يكون مضمونُها قديمًا، لكنَّها تبلورتْ بشكل كبير في إطار الحضارة المعاصرة، وكذلك، لأهمِّية تناوُل هذا الموضوع بلغة مُعاصرة، خصوصًا في ظلِّ ما يتعرَّضُ له الإسلامُ - بوصفه دينًا سماويًّا- من تحدِّيات داخليّة وخارجيّة، الهدفُ منها التَّشكيكُ في جميع مَنظوماته العقديّة والقِيَميّة والتَّشريعيّة والخُلُقيّة والحُقوقيّة، التي تُشكِّلُ السُّورَ الواقيَ، والحاجزَ الصّلبَ لصدِّ محاولات الاستعمار الغربيِّ لترَسيخ الهَيمنة على الجغرافية السِّياسيّة للعالَم الإسلاميِّ، ونهب ثرواته وتَدمير مُقوِّماته الحَضاريّة، ومُحاولة إلحاقه بالحضارة الغربيّة، إن استطاعوا إلى ذلك سبيلاً، مصداقًا لقوله تعالى: ﴿**وَلَا يَزَالُونَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوا**﴾ [البقرة:٢١٧].

تتكوَّنُ هذه الدِّراسةُ من محورَين رئيسين: الأوَّل، التَّعرُّفُ على مفهوم الأمن الفكريِّ في القرآن الكريم ومُرتكزاته الأساسيّة، الثاني، التعرُّفُ على أهمِّ مُعوِّقات الأمن الفكريِّ، وكيفيّة مُواجهتها، من خلال تعاليم القرآن الكريم وإرشادات السُّنة النَّبويّة الشَّريفة. وقد اعتمدَت الدِّراسةُ المَنهجَين: الاستقرائيِّ والتَّحليليّ.

أولا: الأمن الفكري مفهومه ومرتكزاته في القرآن والسُّنة

أ - تعريف الأمن الفكري: لغةً واصطلاحًا

يقول ابنُ فارس: (أمن) الهمزةُ والميمُ والنُّون، أصلانِ مُتقاربان، أحدُهما الأمانةُ التي هي ضدُّ الخيانة، ومعناها سكونُ القلبِ، والآخَرُ التَّصديقُ.. قال الخليل: الأمَنةُ من الأمنِ، والأمانُ إعطاءُ الأمَنة، ورجلٌ أمَنةٌ، إذا كان يأمنُه النّاسُ ولا يَخافونَ غائلتَه..[1]، والأمنُ في اللُّغة ضدُّ الخوفِ، كما يَعني حالةَ السَّكينةِ واطمئنانَ النَّفسِ وزَوالَ الخَوفِ عنها والاستقرارَ..[2].

وفي القرآن الكريم وردَت كلمةُ (الأمن) بمعانٍ مُتعدِّدة: بمَعنى (سُكون القلب) في قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُم بِظُلْمٍ أُولَٰئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [الأنعام:٨٢]، وبمَعنى المكان الذي يأمنُ فيه النّاسُ: ﴿**وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنًا..**﴾ [البقرة:١٢٥]، وهناكَ كلماتٌ أُخرى مشتقّةٌ من مادة (أمن)، مثل: الأمانة، التي هي ضدُّ الخيانة: ﴿**..فَإِنْ أَمِنَ بَعْضُكُم بَعْضًا فَلْيُؤَدِّ الَّذِي اؤْتُمِنَ أَمَانَتَهُ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ**﴾ [البقرة:٢٨٣]، وكذلك مصطلحُ الإيمان ودلالاتُه المُتعدِّدةُ: ﴿**وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ**﴾ [الشورى:٥٢]. وقد لاحظَ علماءُ اللُّغة أنَّ الألفاظَ الثّلاثةَ تَجمعُها صلةٌ وثيقةٌ، (الإيمان) يُفيد الطّمأنينةَ والسَّكينةَ والأمانَ، و(الأمانةُ) تُفيدُ التَّصديقَ بمَن تأمنُه على الشَّيء والاطمئنانَ له، و(الأمن) ويَعني أن تُصدِّقَ بمَن يُؤمِّنكَ على نفسكَ وأهلكَ ومالكَ.[3]

أمّا (الفكرُ)، فقد عرَّفَه ابنُ منظور بأنَّه: إعمالُ الخاطرِ في الشَّيء، والتَّفكُّرُ اسمَ التَّفكير، ومنهم من قال فِكري، ورجلٌ فكيرٌ: كثيرُ التَّفكير، وقال الجوهريُّ: التفكُّرُ: التأمُّلُ[4]. وعرَّفَه الرّاغبُ الأصفهانيُّ بقوله: « الفكرةُ قوّةٌ مُطرقةٌ للعلمِ إلى المعلوم، والتفكُّرُ جولانُ تلكَ القوّةِ بحسب نظرِ العَقلِ، وذلك للإنسانِ دونَ الحيوانِ، ولا يُقال إلاّ فيما يمُكِنُ أن يَحصلَ له صورةٌ في

١ - أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، ج١ ص١٣٣.
٢ - انظر: محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، ج١٣ ص ١٣٤.
٣- انظر للمزيد عن معاني لفظة الأمن في القرآن: طلال مشعل، مفهوم الأمن في القرآن الكريم، ص٦.
٤ - محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، ج١١، ص ٢١١، مادة فكر.

القلبِ»[1]. أمّا (الفكرُ) في المعاجمِ المُعاصرةِ: فـ « يُطلَق على الفعلِ الذي تقومُ به النَّفسُ عندَ حركتِها في المَعقولات، أو يُطلَق على المَعقولاتِ نفسها، فإذا أُطلقَ على فعلِ النَّفسِ دلَّ على حركتها الذّاتيةِ، وهي النَّظرُ والتأمُّلُ، وإذا أُطلِقَ على المَعقولاتِ دلَّ على المَفهومِ الذي تُفكِّرُ فيه النَّفسُ»[2].

أمّا اصطلاحًا، فإنَّ هذا المُركَّبَ الوصفيَّ من كلمتَي: الأمن والفكر، قد خلَت من تعريفِه أو تحديدِه مُعظَمُ المعاجمِ والقَواميسِ اللُّغويّةِ القديمةِ والحَديثةِ أيضًا؛ لأنَّه من المَفاهيمِ المُستحدَثةِ التي ظهرَت – كما قُلنا في المَدخل- في إطارِ مَفاهيمِ الأمنِ المُتعلِّقةِ بالدَّولةِ المُعاصرةِ، على غرارِ مصطلحاتِ: الأمنِ الاقتصاديِّ، والأمنِ الغذائيِّ، والأمنِ المائيِّ، والأمنِ السيبرانيّ..إلخ. لكنْ هناكَ تعريفاتٌ متعدِّدةٌ وردَت في الكتاباتِ السِّياسيّةِ الغربيّةِ والدِّراساتِ الأكاديميّةِ المُتخصِّصةِ في أمنِ الدُّولِ والعلاقاتِ الدَّوليّةِ، معظمُها ركَّزَ على الغايةِ من الأمنِ الفكريِّ، مع الإشارةِ إلى الإجراءاتِ التي تقومُ بها الدُّولُ لتحقيقِ أمنِها في هذا المجالِ، في إطارِ الصِّراعِ السياسيِّ والأيديولوجيِّ والإعلاميِّ العالميِّ[3].

وبشكلٍ عامٍّ، فالأمنُ الفكريُّ في الفكرِ السِّياسيِّ الغربيِّ يُقصَد به: «حالةُ الاستقرارِ الفكريِّ والمعرفيِّ داخلَ المجتمعِ، بحمايتِه من التأثيراتِ الأيديولوجيّةِ المُتطرِّفةِ، والتَّضليلِ الإعلاميِّ، والحروبِ الفكريةِ التي تُهدِّدُ القيمِ الدِّيموقراطيّةَ وقيمَ الاقتصادِ الحرِّ، وحقوقَ الإنسانِ، والهويّةَ الثَّقافيةَ، أو الأمنِ القَوميَّ.. ويتحقَّقُ ذلكَ عن طريقِ التَّعليمِ النَّقديِّ، وتحليلِ المَعلوماتِ والأخبارِ، وحمايةِ حريّةِ التَّعبيرِ ودعمِ التعدُّديّةِ الثَّقافيّةِ والفكريّةِ، ومُواجهةِ جميعِ أنواعِ التَّضليلِ الاعلاميِّ، وثقافةِ الكراهيةِ والعُنفِ، أو الإخلالِ بالتَّعايُشِ السِّلميِّ بينَ المُكوِّناتِ الاجتماعية»[4].

---

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٨٤.

٢ - انظر: جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج٢، ص ١٥٦.

٣ - انظر: محمد محمد نصير، الأمن والتنمية، مكتبة العبيكان، الرياض، ط١- ١٤١٣هـ، ص١٢.

٤ - انظر: حول تعريف الأمن الفكري في الفكر الغربي الرأسمالي، إيمان أحمد عزمي، مفهوم الأمن بين المحددات العلمية والإشكالات المنهجية المعاصرة: دراسة تحليلية للتعريفات والدور المجتمعي للمؤسسات، ص٧.

يظهرُ بوضوحٍ من خلال هذا التَّعريف العامِّ للأمنِ الفكريِّ في الأدبيّات السياسيّة الغربيّة الهواجسُ الأمنيّةُ - الفكريّةُ، التي تَعيشُها الدَّول التي تُطلِقُ على نفسها «الدِّيموقراطيات الغربيّة». كما عرَّفتْه دراساتٌ أخرى بأنَّه: « الحالةُ التي يَطمئنُّ فيها المجتمعُ على ما يَعيشُ عليه من قِيَم ومَبادئَ وأنماطِ عيشٍ، والحفاظُ على مكوِّناته الثَّقافيّة، وحمايتُها من التيّاراتِ الوافدة، وتحصينُ الهويّةِ من أيِّ اختراقٍ أو احتواءٍ خارجيٍّ..»[1].

والجامعُ بينَ التَّعريفَين هو التأكيدُ على أهمِّيةِ تَحصينِ الهويّةِ الثَّقافيةِ للمُجتمعِ وحمايتِها من أيِّ فكرٍ أو ثقافةٍ وافدةٍ أو خارجيّةٍ، وهذا في نظرِنا هو جوهرُ مفهومِ الأمنِ الفكريِّ، كما أشارَت إليه معظمُ التَّعريفاتِ الغربيّة. التي يُلاحَظُ أنَّها تركِّز على حماية قِيَم الحرِّيةِ والحقوقِ الفرديّةِ والدِّيموقراطيّةِ وحرِّيةِ السُّوق، وضرورةِ حمايةِ المجتمعاتِ الغربيّةِ من التَّضليلِ الإعلاميِّ والأيديولوجيّاتِ الدِّينيّةِ المُتطرِّفة، والمَقصودُ بها في أغلبِ الأحيانِ الإسلامُ (السَّلفيُّ - الوَهابيُّ)، مضافًا إلى الحديث عن إجراءاتِ التصدِّي، التي تتَّخِذُ طابعَ الإجراءاتِ الأمنيّةِ التي تقومُ بها هذه الدُّولُ للحفاظِ على أمنِها الفكريِّ.

• التَّعريفاتُ العربيّةُ والإسلاميّةُ للأمن الفكريّ

معَ توسُّع الاهتمامِ في العالمَينِ العربيِّ والإسلاميِّ بمَفهومِ الأمنِ الفكريِّ، وظهورِ كتاباتٍ ودراساتٍ متعدِّدة، وخصوصًا ما قُدِّم منها في المُؤتمرات والنَّدوات الخاصّة عن: «الأمن الفكريِّ»، فإنَّ الباحثينَ العربَ والمسلمينَ حاولوا نَحْتَ مجموعةٍ من التَّعريفات للأمن الفكريِّ، استفادَت معظمُها من التَّعريفات الغربيّةِ له، لكنْ مع إضفاءِ طابعِ الخصوصيّةِ فيما يتعلَّقُ بطبيعةِ الهويّةِ والإجراءاتِ المُقترحةِ لحمايتِها، والإشارةِ إلى بعضِ الهواجسِ التي بدأتْ تُقلِقُ الدَّولةَ والمجتمعَ الإسلاميَّ، مثل ظواهرِ التطرُّفِ والإرهابِ والصِّراعاتِ المَذهبيّةِ والدِّينيّةِ والإثنيّةِ التي تَجتاحُ بعضَ المَناطقِ في الجغرافية الإسلاميّة.

١ - انظر: للمزيد من هذه التعريفات: نبيل بن نذير الشرايري، الأمن الفكري في ضوء القرآن الكريم، ص ٩.

من هذه التَّعريفات للأمن الفكريِّ:

تعريفُ (الجحنيِّ)، بأنَّه: «سلامةُ فكرِ الإنسانِ وعقلِه وفهمِه من الانحرافِ والخروجِ عن الوسطيّةِ والاعتدالِ، في فَهمِه للأمورِ الدِّينيّةِ والسِّياسيّةِ، وتَصوُّرِه للكونِ بما يَؤول إلى الغُلوِّ والتنطُّعِ، أو إلى الإلحادِ والعَلمنةِ الشّاملة»[1].

وعرَّفَه (نايل ممدوح)، بأنَّه: «سلامةُ الفكرِ الإنسانيِّ من الزَّيغِ والانحرافِ، في فهمِ الأمورِ حالَ طلبِها للوصولِ إلى حقيقتِها، والحُكمِ عَليها»[2]. وقدَّمَ د. الفقي تعريفًا عامًّا وشاملاً للأمن الفكريِّ، بأنَّه: «الشُّعورُ بالأمنِ الرُّوحيِّ والنَّفسيِّ والجسديِّ والعقليِّ والماديِّ، بما لا يتعارضُ مع الدِّينِ والمَبادئِ والمُثُلِ العُليا والأخلاقِ التي يُؤمِنُ بها الفردُ والمجتمعُ، ولا يُؤثِّرُ سلبًا على أفكارِه وحياةِ الآخَرين»[3].

وهناكَ تعريفاتٌ أخرى، ركَّزَت على الأمن العقدَيّ خصوصًا، وضرورةِ حمايةِ عقيدةِ المجتمعِ الإسلاميِّ من التحدِّياتِ الدّاخليّةِ (الغلوِّ- الانحراف) أو الخارجيّةِ (الغزو الفكريِّ- الإلحاد- العَلمانيّة)، فيما وسَّعَت تَعريفاتٌ أخرى مفهومَ الأمنِ ليَتجاوزَ حمايةَ العقيدةِ إلى الاطمئنانِ على النَّفسِ والعقلِ والعِرضِ والمالِ، أي حمايةِ ما يُعرف في الشَّريعةِ الإسلاميّةِ بالضَّروراتِ أو المَصالحِ الخَمسةِ، أي: (الدِّين، النَّفس، العَقل، العِرض، المال).[4]

ومن خلال هذه التَّعريفاتِ، يُمكنُ أن نُلاحظَ، وبشكلٍّ عامٍّ، الفرقَ بينَ مفهومِ الأمنِ في الأدبيّاتِ السِّياسيّةِ الغربيّةِ والتَّعريفاتِ العربيّةِ والإسلاميّة؛ حيثُ تحدَّثَت التَّعريفاتُ الإسلاميّةُ عن أهميّةِ وضرورةِ حمايةِ المَنظوماتِ: العقدَيّة والتَّشريعيّة والخُلُقيّة التي يَحتضنُها الإسلامُ، مضافًا إلى الأبعادِ الأخرى للأمن في المجتمعِ الإسلاميِّ، وعلى رأسها الأمنُ السِّياسيُّ والاقتصاديُّ.. إلخ، فيما كادَ المفهومُ الغربيُّ للأمن أن يقتصرَ أو يُركِّزَ على حمايةِ الوضعَينِ السِّياسيِّ والاقتصاديِّ،

١ - الحجني، وظيفة الأسرة في تدعيم الأمن الفكري، ص١٨٥.
٢ - نايل ممدوح أبو زيد، الأمن الفكري في القرآن، ص ١٤٤.
٣ - د. إبراهيم بن محمد الفقي، الأمن الفكري: المفهوم- التطور - الإشكالات، ص ١٢.
٤ - انظر للتوسع عن هذه الفروقات: إيمان أحمد عزمي، مفهوم الأمن الفكري بين المحددات العلمية والإشكالات المنهجية المعاصرة: دراسة تحليلية للتعريفات والدور المجتمعي للمؤسسات، ص٧.

حماية: (القيم الدِّيموقراطيّة، وحرِّية السُّوق والقيَم الاقتصاديّة اللِّيبرالية، بالإضافة إلى حماية القيَم االفَرديّة/ الحرِّية الشَّخصيّة وحقوق الإنسان)؛ لأنَّ الاختيارات الفكريّةَ والعقدَيّة وطبيعةَ العلاقاتِ الشَّخصيّةِ مع الآخَرينَ، تُعتبر من الحقوقِ الفرديّة التي يتحكَّمُ فيها الإنسان، دونَ تدخُّلِ المجتمعِ أو الدَّولة. ومن خلال ذلك - أيضًا – سيَظهر الفرقُ فيما يخصُّ الإجراءاتِ المتَّخذةَ لتحقيقِ الأمنِ الفكريِّ، ومَدى مسؤوليّةِ الأفرادِ والمجتمعِ والدَّولةِ في ذلك. كما سيَظهر معنا عندَ الحديثِ عن مُعوِّقاتِ الأمنِ في القرآنِ الكريمِ وسبُلِ التصدِّي لها.

ب - أهميّةُ الأمن الفكريِّ للفرد والمجتمع المُسلم

أمّا بالنِّسبةِ لأهميّةِ الأمن الفكريِّ، فتَكمنُ أولاً في كونه أحدَ المُكوِّناتِ الأساس للأمن بوجه عامٍّ في أي دولةٍ أو مجتمع، وكذلك لعَلاقته بجميع الأبعادِ الأخرى للأمن: السِّياسيِّ والاقتصاديِّ والاجتماعيِّ.. إلخ، وثانيًا، في الغاية منه وما يترتَّبُ على فقدانه من أثارٍ سلبيّة، فأيُّ خللٍ في الأمن الفكريِّ سيَنعكسُ سَلبًا أو خللاً في هذه الأبعاد، وعلى المُستويَينِ الفرديِّ والاجتماعيِّ، وهذا ما أكَّدتْه الدِّراساتُ السِّياسيّةُ الاستراتيجيّةُ الغربيّةُ.

أمّا بالنِّسبة للأمن الفكريِّ، في الفكر الإسلاميِّ، فهو كما يقول الباحثُ (رامي تيسير): «من أهمِّ وأسمَى مُكوِّنات الأمن بصفة عامّة؛ لأنَّه أساسُ وجودها واستمراريّتها، فهو يأتي في المَرتبة الأولى من حيثُ الأهَمِّيّةُ والخطورةُ، فهو لُبُّ الأمنِ وركيزتُه الكُبرى؛ لأنَّه يَستمدُّ جذورَه من عقيدة الأمّة ومُسلَّماتها»[1]. فهو أمنٌ يتعلَّقُ بحماية المَنظومة العقديّة والتَّشريعيّة والخُلُقيّة والقيَميّة بوجه عامٍّ، التي يَعيش وفقَها الإنسانُ المسلمُ والمجتمعُ الإسلاميُّ، ومن ورائها حمايةُ الأمّة ودُولِها وشعوبها من التفكُّك السِّياسيِّ والاجتماعيِّ والانهيار الاقتصاديِّ، خصوصًا أمامَ التحدِّيات التي تُواجهُ الأمّةَ ودينَها ومجتمعاتها اليومَ، تحدِّيات الغزوِ الفكريِّ الغربيِّ والعَولمة الثَّقافية، وما تَحملُه من تيّاراتٍ فلسفيّةٍ ماديّةٍ وإلحادٍ وانحرافٍ خُلُقيّ، وانتشارِ ظواهرِ الغلوِّ والتطرُّف والتَّكفيرِ،

١ - انظر: رامي تيسير فارس، الأمن الفكري في الشريعة الإسلامية، ص١٤٧.

والصِّراعاتِ الدَّمويّة بين المُكوِّنات: الإثنيّة والمَذهبيّة والدِّينيّة والسِّياسيّة، وهذا ما سيُؤدِّي حتمًا إلى انهيار هذه الأمّة، بتفكُّك دُولِها وشعوبِها سياسيًّا واجتماعيًّا ودينيًّا، وانهيارِها اقتصاديًّا، وما يُفضي إليه ذلك من فتحِ الطَّريقِ أمام الاستِعمارِ، الذي يَنتظر الفرصةَ للانقضاضِ عليها ونهبِ ثرواتِها واستعبادِ شعوبِها.

وعليه، فغايةُ الأمن الفكريِّ بالنِّسبة للأمّة اليومَ، هو إمَّا حياةٌ كريمةٌ واستمراريّةٌ وتقدُّمٌ ونَهضةٌ للأمّة وشعوبِها، وإمّا تخلُّفٌ وتفكُّكٌ، ومن ثمَّ استعمارٌ- مرّةً أخرى، بطريقة واضحة أو ملتوية- وأُفولٌ حضاريٌّ وانهيارٌ شاملٌ.

ت - مُرتكزاتُ الأمن الفكريِّ من خلال القرآن والسُّنة

المقصودُ بالمُرتكزاتِ الدَّعائمُ التي يَقوم عليها هذا الأمنُ، ما دام المقصودُ به حمايةُ المنظومة العقدَيّة والتَّشريعيّة والخُلُقيّة والقِيَميّة الإسلاميّة، فهذه المَنظومةُ – كما هو معلومٌ – قائمةٌ أولاً على الوحي (القرآن والسُّنة)، وثانيًا على العقل. سنتحدَّثُ عن هاتَينِ الرَّكيزتَينِ وخصائصِهما باختصار.

أولاً: الوحي (القرآن والسُّنة)

أ. القرآنُ الكريم هو كتابُ الله المُنزَّلُ على (رسول الإسلام) ﷺ، ومُعجزتُه الخالدةُ، لهداية البشر جميعًا إلى الدِّين الحقِّ، والصِّراط المُستقيم: ﴿**يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ**﴾ [المائدة:١٦]، وقد أنزلَ اللهُ فيه كلَّ ما تَحتاجُه البشريّةُ من عقائدَ وتشريعات وأحكام وقِيَم خُلُقيّة، ومواعظَ وحِكَم وإرشادات..إلخ: ﴿**وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ**﴾ [النحل:٨٩]، وقد

حفظَه الله من التَّحريف أو الزِّيادة والنُّقصان: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩]، ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت:٤٢]. والمطلوبُ من المؤمنينَ به قراءتُه وحفظُه وفهمُه وتدبُّر آياته، والعملُ بكلِّ ما جاء فيه، والرُّجوعُ إليه لاستنباط كلِّ ما يَحتاجُه المُسلمُ من تشريعات وأحكام ومبادئَ وقيَم، واتِّباعِ إرشاداته وتعاليمه: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٥ - ١٥٧].

وفي السُّنة الشَّريفة يقول رسولُ الله ﷺ عن القرآن: «... كتابُ الله، فيه نبأُ مَن قبلكُم، وخبرُ مَن بعدَكُم، وحُكمُ ما بينَكم، هو الفَصلُ ليس بالهَزل، مَن تركَه من جبَّارٍ قصمَه اللهُ، ومن ابتغى الهُدَى في غيرِه أضلَّه اللهُ، وهو حبلُ الله المتينُ، وهو الذِّكرُ الحكيمُ، وهو الصِّراطُ المستقيمُ، وهو الذي لا تَزيغُ به الأهواءُ، ولا تَختلفُ به الآراءُ، ولا تَلتبس به الألسُنُ، ولا يَخلَقُ عن كثرةِ التَّرديد، ولا تَنقضي عجائبُه ، ولا يَشبعُ منه العلماءُ، مَن قال به صدَقَ، ومَن حكمَ به عدَلَ، ومَن عمِلَ به أُجرَ، ومَن دعا إليه هُدِيَ إلى صراطٍ مُستقيمٍ»[1].

ب. السُّنة النَّبويّةُ: وهي كلُّ ما وردَ عن (رسول الإسلام) ﷺ، من قولٍ أو فعلٍ أو تقريرٍ، وهي المصدرُ الثاني - بعد القرآن الكريم – للأحكام والقيَم والمَبادئ في الإسلام، وإليها يُرجَع في فَهم القرآن وتَفسيره، ومنها تُستنبط الأحكامُ كذلك، لقول الله -عزَّ وجلَّ- عن (الرَّسول) ﷺ: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ* إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ [النجم:٣-٤]، ولذلك أوجبَ اللهُ طاعتَه وقرنَها بطاعته – عزَّ وجلَّ - ﴿مَّن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ [النساء:٨٠]. والرُّجوع إليه وإلى سنّته عندَ التَّنازُع: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلا﴾ [النساء:٥٩].

وهذا ممّا أجمعَ المسلمونَ على الاعتقاد به، وإنَّما وقعَ الاختلافُ بينهم في: أولاً، صحّةِ ما نُسب إليهِ أو نُقلَ أو رُوي عنه ﷺ من أحاديثَ وروايات، وثانيًا، في فهمِ وفِقهِ السُّنة، وقد وضعَ

١ - محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، عن الإمام علي بن أبي طالب، حديث رقم: ١٣٥٠٩.

المسلمونَ ضوابطَ علميّةً ومَنهجيّةً لتَمييزِ الصَّحيحِ من الضَّعيف في هذه الأحاديث وفَهمها وفِقهها. كما أضافَ الشِّيعةُ الإماميّةُ إلى السُّنة ما رُوِيَ عن أئمة أهلِ البَيت عليهم السلام لقول الرَّسول صلى الله عليه وآله وسلم: « إنِّي تاركٌ فيكم الثَّقَلَيْنِ، كتابَ الله وعِترْتي أهلَ بَيْتي، ولنْ يَتفرَّقا حتَّى يَردَا عليَّ الحَوضَ» [1]، ولقوله صلى الله عليه وآله وسلم كذلك: «..فإنَّه مَن يَعِشْ منكم بَعدي فسيرَى اختلافًا كثيراً، فعَلَيكُم بسُنّتي وسُنّة الخلفاءِ المَهديِّينَ الرّاشدينَ تمَسَّكوا بها، وعَضُّوا عليها بالنَّواجذِ، وإيّاكُم ومُحدثاتِ الأمورِ، فإنَّ كلَّ مُحدَثةٍ بدعةٌ، وكلَّ بدعةٍ ضَلالةٌ»[2].

ج. العقلُ: للعقلِ في القرآن والسُّنة مكانةٌ كُبرى، باعتباره الأداةَ الرَّئيسةَ للإدراك والعلم والمَعرفة والفَهم، وبه التَّمييزُ بين الصَّواب والخطأ، والحقِّ والباطلِ، وإليه يَتوجَّهُ الأمرُ والنَّهيُ الإلهيُّ، وعليه يترتَّبُ الجَزاءُ والعِقابُ[3]، وعلاقتُه بالوَحي (القرآن والسُّنة) هي علاقةُ: الفَهم والتدبُّر والاعتبار والتَّذكُّر، وتعقُّلِ الآيات، والفقه والاستنباط..إلخ، وقد ركَّزَ القرآنُ الكريمُ على هذه الوظائف، وليس على ماهيّة العقلِ، لذلك، فكلُّ ما وردَ عن العقلِ في القرآن مُتَّجهٌ لتَفعيلِ هذه الوظائف، وما يترتَّبُ عليها، والتَّحذير من تَعطيلها: **﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾** [النحل:١٢].

ثانيا: مُعوِّقاتُ الأمن الفكريِّ من خلال القرآنِ والسُّنةِ وكيفيّةُ مُواجهتِها

ونَقصدُ بها المَوانعَ التي تَحولُ دون تحقُّق الأمن الفكريِّ على المستويَينِ الفرديِّ والاجتماعيِّ، أي تمَنعُ الإنسانَ وتَحرمُه من الهدايةِ واتِّباعِ الأنبياءِ والرُّسُلِ، وما نزلَ معَهم من الحقِّ والعَدلِ والصِّراطِ المُستقيمِ، وتُوقِعُه في العِصيانِ والانحرافِ عن الحقِّ، وفي الضَّلالِ والكُفرِ والشِّركِ

١ - سليمان بن أحمد الطبراني، المعجم الأوسط، ج٣ ص ٧٤، رواه عن أبي سعيد الخدري.

٢ - سليمان بن الأشعث، سنن أبي داود، حديث رقم ٤٦٠٧. عن عبد الرحمن بن عمرو السلمي.

٣ - انظر: عن تعريف العقل في اللغة والفكر الإسلامي، د. عبد اللطيف بيركوب، مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل حفظه: دراسة قرآنية مقاصدية، ص ٨٦.

والظُّلم والتِّيه، بما يُفضي إلى الهلاكِ وعدمِ الاستقرارِ والطمأنينةِ النَّفسيّةِ والرُّوحيّةِ في الدُّنيا، والشَّقاءِ والعَذابِ الأبديِّ في الآخرة، وهذه الموانعُ تنقسمُ إلى قسمَينِ: موانعُ داخليّةٌ جوّانيّةٌ، وموانعُ خارجيّةٌ برّانيّةٌ، وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريم عنها بالتَّفصيل، وكشفَ عن عواقبها وكيفيّةِ مُواجهتِها والتَّخلُّصِ منها، وكذلك أشارَت الأحاديثُ والرِّواياتُ إلى الكثيرِ منها. وسنُحاول تتبُّعَ معظمِها دونَ تفصيلٍ؛ لأنَّ حجمَ هذه الدِّراسةِ لا يتَّسع لذلك.

١ - تَعطيلُ العَقل:

بما أنَّ العقلَ هو القوّةُ أو المَلَكةُ والبَصيرةُ التي أودعَها اللهُ في الإنسان، وهو مَنبعُ الإدراكِ والتَّمييزِ، والمُخاطَبُ بالتَّكليفِ ومَناطُه، فإنَّ تَعطيلَه، بعدَمِ استخدامه في التَّفكيرِ والنَّظرِ والتأمُّلِ والتدبُّرِ والاستنباطِ والاعتبارِ في: الكونِ والمَلكوتِ من جهة، وعالمِ الوَحي (القرآن والسُّنة) من جهة أخرى، يُعتبر من أهمِّ مُعوِّقاتِ الأمنِ الفكريِّ؛ لأنَّ هذا التَّعطيلَ يَحرمُ الإنسانَ من معرفة حقائقِ الوجودِ، وما حَمَلَه الوحيُ من آياتٍ وأسرارٍ وكنوزٍ معرفيّةٍ، ويمُهِّدُ أمامَه الطريق للسُّقوطِ في متاهاتِ الجهلِ والضَّلالِ والتِّيه، وبذلك، لا يُحقِّقُ الهدفَ من وجودِه، أي عبادةِ الله، وبناءِ الحضارةِ الإنسانيّةِ وفقَ المَشيئةِ الإلهيّةِ.

لذلكَ دَعا القرآنُ في أكثرَ من آيةٍ إلى التَّفكيرِ والنَّظرِ والتعقُّلِ: ﴿**قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ..**﴾ [العنكبوت:٢٠]، ﴿**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**﴾ [الحج:٤٦]. وكذلكَ بالنِّسبةِ للوَحي فقد نزلَ ليُفهَمَ ويُتدبَّرَ: ﴿**أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا**﴾ [سورة محمد: ٢٤]. بل إنَّ الإنسانَ الذي لا يَستخدم الحواسَّ التي تُزوِّدُ العقلَ بالمعرفة، ولا يُفكِّرُ ولا يَستخدمُ عقلَه في ذلك، لا يَختلفُ عن الدَّوابِّ التي لم يُكرمْها اللهُ بالعَقل: ﴿**أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلا**﴾ [الفرقان:٤٤]، والنَّتيجةُ الحتميّةُ لذلك الضَّلالُ في الدُّنيا والعذابُ في الآخرة: ﴿**وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ**﴾[الملك:١٠].

٢ - اتِّباعُ الأهواءِ والشَّهوات والنَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوء:

من أخطرِ العواملِ التي تَحولُ دونَ اتِّباعِ الإنسانِ للحقِّ، وتُوقعُه في الضَّلالِ والانحرافِ والظُّلمِ، اتِّباع الهَوى أو الأهواء، وقد حذَّرَ القرآنُ الكريم بشدّة من اتِّباعِ الهَوى، الذي قد يُصبحُ بمَثابةِ الإلهِ الذي يُعبَدُ من دون الله: ﴿**أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَن يَهْدِيهِ مِن بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ**﴾ [الجاثية:٢٣]، ففي هذه الآيةِ إشارةٌ واضحةٌ إلى أن اتِّباعَ الهَوى،لدرجةِ أن يُصبحَ إلهًا يُعبَد، فإنَّ ذلكَ سيُؤدِّي حتمًا إلى الضَّلالِ، بل إلى ما هو أخطرُ، وهو الخَتْمُ على القلبِ؛ لأنَّ الهوى يُعطِّلُ جميعَ وسائلِ المَعرفةِ لدى الإنسان، فيَسقط في الضَّلالِ الأبديِّ. كما أشارَ القرآنُ إلى ارتباط اتِّباعِ الهوى بالضَّلال: ﴿**.. قُل لَّا أَتَّبِعُ أَهْوَاءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُهْتَدِينَ**﴾ [الأنعام:٥٦]، وبالجَهل: ﴿**ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ**﴾ [الجاثية:١٨]، وبالمَيل إلى الشَّهوات: ﴿**فَخَلَفَ مِن بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهَوَاتِ فَسَوْفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا**﴾ [مريم:٥٩].

ولخطورة اتِّباعِ الأهواءِ، نجدُ القرآنَ يُحذِّرُ الأنبياءَ- أيضًا- من اتِّباعِ الهَوى، معَ أنَّهم مَعصومونَ عن الخطأ، كما يُحذِّرُهم من اتِّباعِ أهواءِ مُجتمعاتهم: ﴿**يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الْأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ**﴾ [سورة ص:٢٦]. ويقول -عزَّ وجلَّ- مُخاطبًا (الرَّسولَ الكريمَ محمد) ﷺ: ﴿**.. فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ..**﴾ [المائدة:٤٨]. كما أشارَ القرآنُ – أيضًا- إلى أنَّ اتِّباعَ الهَوى يُؤدِّي حَتمًا إلى فسادِ الكونِ: ﴿**وَلَوِ اتَّبَعَ الْحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ**﴾ [المؤمنون:٧١].

كما حذَّرَ القرآنُ الكريمُ من النَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوءِ، ﴿**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي**﴾ [يوسف:٥٣]، فهذه النَّفسُ تُسوِّلُ لصاحبها عملَ المَعاصي استجابةً للهَوى والشَّهوة، فيَنحرف عن الحقِّ ويَسقطُ في الضَّلالِ والظُّلمِ: ﴿**فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ [المائدة:٣٠].

أمّا في السُّنة الشَّريفة والرِّوايات، فإنَّ اتِّباعَ الأهواء سببٌ في إفساد العَقلِ والدِّين، والابتعاد عن الحقِّ، يقول (الإمامُ عليٌّ): « فأمّا اتِّباعُ الهَوى فيَصُدُّ عن الحقِّ» [1]، وهو من أهمِّ أسباب ظهور الفتن والمحَن، يقولُ الرَّسولُ ﷺ: «إنَّما سُمِّي الهَوى لأنَّه يَهوي بصاحبه»[2]، ويقولُ (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «إنَّما بَدْءُ وقوعِ الفِتنَ أهواءٌ تُتَّبعُ، وأحكامٌ تُبتدَعُ»[3]. وفي ذلك إشارةٌ إلى التأثيرِ السَّلبيِّ لاتِّباع الهَوى على الأمنِ الاجتماعيِّ؛ لأنَّ وقوعَ الفِتنَ في أيِّ مجتمعٍ يَتبعُه التَّنازُعُ والتَّحاربُ والانقسامُ بينَ مُكوِّناته. ويقولُ (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام عن مَخاطرِ الشَّهواتِ: « مَن تَسرَّعَ إلى الشَّهواتِ تَسرَّعَت إليه الآفاتُ»[4].

أمّا العِلاجُ الذي يَقترحُه القرآنُ، وأرشدَت إليه السُّننُ والرِّواياتُ، فيَتمثَّلُ في: اتِّباعِ العَقلِ والعلمِ والوَحي وطاعةِ اللهِ ورُسله: ﴿**وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ**﴾ [النور:٥٢]، والابتعادِ عن أهلِ الأهواءِ والغَفلة، وتجنُّبِ طاعتِهم، ﴿**وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف:٢٨]، وقمعِ الشَّهوات، بتَزكيةِ النَّفسِ ومُجاهدتها وتَخويفها من العَواقبِ، حتى تصلَ إلى مقام التَّقوى حيثُ الاطمئنانُ والسَّكينةُ والاستقرارُ: ﴿**وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَىٰ* فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَىٰ**﴾ [النازعات:٤٠-٤١]. وعن (الإمام عليٍّ) عليه السلام قالَ: «إنَّ هذه النَّفسَ لأمّارةٌ بالسُّوءِ، فمَن أهملَها جَمحَتْ به إلى المآثِمِ»[5].

٣ - اتِّباعُ الشَّيطان:

في القرآن والسُّنةِ، اعْتُبر الشَّيطانُ العدوَّ الثّاني الخارجيَّ للإنسان، بعدَ النَّفسِ الأمّارةِ بالسُّوء،

١ - الإمام علي عليه السلام، نهج البلاغة، خطبة ٤٢-١.
٢ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ١٠، ص٣٧٤، حديث: ٢١٠٦٩.
٣ - نهج البلاغة، خطبة ٥٠. وميزان الحكمة، ص٣٧٣ حديث: ٢١٠٦٧.
٤ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ١٠، ص٣٧٥ حديث: ٢١٠٨٥.
٥ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج١٠ ص ١٣٠، حديث: ٢٠١٦٧.

العدوُّ الأوَّلُ للإنسان من داخله، وقد حذَّرَ اللهُ -عزَّ وجلَّ- (آدمَ) وذريّتَه من بعده من (الشَّيطان)؛ لأنَّه العدوُّ المُبينُ لآدمَ وذُريّته: ﴿**فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَـٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ**﴾ [طه:١١٧]، بعدَما طردَه اللهُ من الجنّة ولعنَه لامتناعه عن السُّجودِ لآدمَ، فمن تلكَ اللَّحظة أعلنَ الشَّيطانُ الحربَ على (آدمَ) وذريّته، وأنَّه سيَعملُ كلَّ ما في وُسعه لإضلالهم وحَرفهم عن الصِّراط المُستقيم؛ حيثُ استطاعَ بكذبه وتَغريره - في البداية - أن يُخرجَ (آدمَ وحوّاءَ) من الجنّة، ثم تَوعَّدَ البشريّةَ: ﴿**قَالَ فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ * ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ**﴾ [الأعراف:١٦-١٧].

وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ بالتَّفصيلِ عن هذا العدوِّ المُبينِ للإنسان، وكشفَ لنا عن أساليبه في إضلال الإنسان عن طريق: الوَسوسة: ﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا**﴾ [الأعراف:٢٠]، والتَّغرير والإغراء:﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ [الأعراف:٢٢]، والتَّزيين والإغواء: ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الحشر:٣٩]، والنَّزغ: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ**﴾ [الإسراء:٥٣]، والتَّخويف من الفَقر، والأمر بارتكاب المَعاصي والمُنكَرات: ﴿**الشَّيْطَانُ يَعِدُكُمُ الْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِالْفَحْشَاءِ**﴾ [البقرة:٢٦٨]، وإيقاع العَداوة والبَغضاء بينَ النّاس في الخَمر والمَيسر:﴿**إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ [المائدة:٩١]، وبالفتنة والافتتان: ﴿**يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا**﴾ [الأعراف:٢٧].

والهدفُ النِّهائيُّ للشَّيطان هو إيقاعُ الإنسان في الكفر والشِّرك والظُّلم ومَعصية الله ورُسله، وارتكاب المعاصي والمُنكرات، ويُلاحَظُ أنَّ ما يترتَّبُ على هذه الأفعال والسُّلوكيّات من جرائمَ ومُنكرات تُؤثِّرُ على جميع أبعاد الأمن: الرُّوحيِّ والفكريِّ والاجتماعيِّ والاقتصاديِّ والسياسيِّ.. إلخ، ما يُؤدِّي بالإنسان إلى أن يَعيش في هذه الأرض بشَقاء وضَنك وانحراف، وَيؤولُ به الأمرُ في نهاية المَطاف إلى العذاب الأبديِّ: ﴿**كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ**﴾ [الحج:٤].

ولم يَكتفِ القرآنُ بالتَّحذيرِ من هذا العدوِّ المُبينِ للإنسانِ وكشفِ أساليبِه، وإنَّما قدَّمَ له كيفيّةَ المُواجهةِ والتَّخلُّصَ من مَكرِ الشَّيطانِ ووَساوسِه وخططِه للإيقاعِ بالإنسان، تَبدأ أولاً من:

- اتِّخاذِه عدوًّا: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ [فاطر:٦]، وهذه العَداوةُ تَقتضي الحذرَ الشَّديدَ منه، بالامتناعِ عن اتِّباعِه أو اتِّباعِ خُطواته: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [البقرة:٢٠٨]، يقول (العلامةُ الطباطبائيُّ): إنَّ المُرادَ من اتِّباعِ خطواتِ الشَّيطانِ ليس اتِّباعَه في جميعِ ما يَدعو إليه من الباطل، بل اتِّباعَه فيما يَدعو إليه من أمرِ الدِّينِ، بأنْ يُزيِّنَ شيئًا من طُرقِ الباطلِ بزينةِ الحقِّ، ويُسمِّي ما ليس من الدِّينِ باسمِ الدِّينِ، فيأخذ به الإنسانُ من غيرِ علمٍ[1].

- الحذرِ من السُّقوطِ في عبادتِه: ﴿**أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَن لَّا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ**﴾ [يس:٦٠]، أي بطاعتِه والخضوعِ لوساوسِه، أو الاستجابةِ لأوامرِه: ﴿**وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَانٍ إِلَّا أَن دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوا أَنفُسَكُم**﴾ [إبراهيم:٢٢]. أو مُوالاتِه: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ**﴾ [الأعراف:٢٧]، أي قرناءَ وأعوانًا للكفّارِ.

- الدُّعاءِ والاستعاذةِ بالله من الشَّيطانِ في كلِّ حينٍ: ﴿**وَقُل رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ**﴾ [المؤمنون: ٩٧]، ﴿**وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [الأعراف:٢٠٠].

- التَّخلُّصِ من سلطانِه بالعبوديّةِ للهِ والتَّقوى والإخلاصِ: ﴿**إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلَّا مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ**﴾ [الحجر:٤٢]، ﴿**قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ * إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ**﴾ [الحجر: ٣٩-٤٠]، أي المُؤمنينَ حقًّا والمُوحِّدينَ، والذين يَعبدونَ اللهَ بإخلاصٍ.

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج٢ ص ١٠١.

أمّا السُّننُ والرِّواياتُ فقد حذَّرَت – كذلك - من الشَّيطانِ وكَيدِه، يقول (الرَّسولُ الكريم) ﷺ لابن مسعودٍ: يا بنَ مسعودٍ، اتَّخِذ الشَّيطانَ عدوًّا، فإنَّ اللهَ تعالى يقول: ﴿**إِنَّ الشَّيطانَ لَكُم عَدُوٌّ فاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا..**﴾ [1]. وعن (الإمام عليٍّ) عليه السلام قال: «احذَرُوا عَدُوًّا نفذَ في الصُّدورِ خَفِيًّا، ونَفثَ في الآذانِ نَجِيًّا»[2].

٤ - جَحْد الحقائقِ:

الجُحودُ هو إنكارُ الحقائقِ وعدمُ الاعترافِ أو الإقرارِ بها، مع العلمِ واليَقينِ النَّفسيِّ، أو الإنكارُ باللِّسانِ مع اليقينِ القلبيِّ بصحّةِ ما يُنكِرُه، وهو سلوكٌ وطريقٌ للضَّلالِ وحِرمانِ النَّفسِ من معرفةِ الحقِّ والإذعانِ له والالتزامِ بمُقتضاهُ، وهذا ما وقعَ لكثيرٍ من النّاسِ زمنَ الأنبياءِ وبعدَهُم؛ حيثُ نجدُهُم يُنكِرُونَ ويَكفرونَ بالمُعجزاتِ الواضحةِ والآيّاتِ البيِّنةِ، مع اليقينِ النفسيِّ والعلمِ بأنَّها حقائقُ، وهذا ما كان سببًا في ضلالِهم وانحرافِهم عن الحقِّ والصِّراطِ المُستقيمِ، ورَفضِهم دعوةَ الأنبياءِ والرُّسلِ ونصائحَ الأولياءِ والدُّعاةِ.

والأسبابُ كثيرةٌ أشارَ إليها القرآنُ الكريمُ وحذَّرَ منها مثلُ الظُّلمِ والعلوِّ: ﴿**وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا..**﴾ [النمل:١٤]، ﴿**قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ**﴾ [الأنعام:٣٣]. وقد قدَّمَ القرآنُ نماذجَ لهؤلاءِ الجاحدينَ وعَواقبِ جُحودِهم، للتَّحذيرِ من هذا السُّلوكِ، مثل فرعونَ وملئِه وجنودِه، الذين استيقنوا بأنَّ (موسى) عليه السلام نبيٌّ مُرسَلٌ، وأنَّ الآياتِ والمُعجزاتِ التي جاء بها هي من عندِ الله، لكنَّهم جَحدوا بها استكبارًا وإجرامًا: ﴿**فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ الطُّوفَانَ وَالْجَرَادَ وَالْقُمَّلَ وَالضَّفَادِعَ وَالدَّمَ آيَاتٍ مُّفَصَّلَاتٍ فَاسْتَكْبَرُوا وَكَانُوا قَوْمًا مُّجْرِمِينَ**﴾ [الأعراف:١٣٣]. ونتيجةُ هذا الجُحودِ كانَت الإغراقَ في اليَمِّ، حيثُ خَسروا الدُّنيا والآخرةَ: ﴿**فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ**﴾ [القصص:٤٠]، و﴿**كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ* وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ * وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ**﴾ [الدخان: ٢٥-٢٦-٢٧].

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٥، ص٨٠، حديث: ٩٣٦٩.

٢ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٥، ص٨٠، حديث: ٩٣٧١.

٥ - التَّقليدُ الأعمى للآباء والسَّلَف:

من أهمِّ العَقباتِ، التي واجهَها الأنبياءُ في طريقِ دعوتِهم، كانَ تَشبُّثُ أقوامِهم ومجتمعاتِهم بتَقليدِ واتِّباعِ آبائِهم وأجدادِهم، ورفضُ كلِّ ما جاءَ به الأنبياءُ مخالفًا لعقائدِ وأعرافِ وتقاليدِ الآباءِ، وكذلك الأمرُ مع المُصلحينَ والمُجدِّدينَ، دائمًا يَصطدمونَ مع عقبةِ تقليدِ الآباءِ، لذلك نجدُ القرآنَ الكريمَ، وفي عدد كبير من آياته يَذمُّ هذا التَّقليدَ ويَنتقدُ هذا الاتِّباعَ غيرَ العَقلانيِّ: ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [البقرة:١٧٠]، ﴿**وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ**﴾ [المائدة:١٠٤]. والمُشكلُ ليسَ في التَّقليدِ، فكما وردَ في الآيتَينِ الكريمتَينِ، فإنَّ النَّهيَ عن تقليدِ هؤلاءِ الآباءِ أو السَّلَفِ، بسببِ جهلِهم وضَلالِهم وبُعدِهم عن العَقلانيّة، وهذا واضحٌ في عبادتهم للأصنامِ وشركِهم بالله وعَيشِهم وفقَ التَّقاليدِ الجاهليّة، حتى إنَّهم يُقلِّدونَ آباءَهم ليس فقط في العقائدِ الضّالة، وإنَّما في بعض الأفعالِ والسُّلوكيّاتِ والأخلاقِ المَذمومةِ عقلاً وعُرفًا: ﴿**وَإِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً قَالُوا وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءَنَا وَاللَّهُ أَمَرَنَا بِهَا قُلْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ أَتَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ**﴾ [الأعراف:٢٨]، ﴿**قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ**﴾ [الشعراء:٧٤]. وقد أكَّدَ القرآنُ على مسألةٍ في غايةِ الأهمِّيةِ والخطورةِ، وهي أنَّ التوجُّهَ لتقليدِ الآباءِ لن يُبرِّرَ الشِّركَ والضَّلالَ يومَ القيامةِ، ولذلك على الخَلَفِ أن يُعيدَ النَّظرَ في عقائدِ السَّلَفِ ويَتبرَّأَ من أي انحرافٍ عقائديٍّ فيها: ﴿**أَوْ تَقُولُوا إِنَّمَا أَشْرَكَ آبَاؤُنَا مِن قَبْلُ وَكُنَّا ذُرِّيَّةً مِّن بَعْدِهِمْ أَفَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ الْمُبْطِلُونَ**﴾ [الأعراف:١٧٣].

كما أشارَ القرآنُ إلى مسألةٍ مُهمّة، وهي أنَّ المُتشبِّثَ بتقليدِ الآباءِ قد لا يكونُ فَردًا، وإنَّما فئةً في المجتمعِ، من مَصلحتِها بقاءُ هذا التَّقليدِ للآباء؛ لأنَّه يُحقِّقُ مصلحةً ما لهم: ﴿**مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ**﴾ [الزخرف:٢٣]، فهؤلاءِ المُترَفونَ همُ الطَّبقةُ الاقتصاديّةُ الغَنيّةُ، وقد تكونُ هي نفسُها الحاكمةَ، لذلك تُواجِهُ الأنبياءَ والمصلحينَ؛ لأنَّ العِلمَ الجديدَ يُخالفُ مَصالحَهم.

فالتَّقليدُ الأعمى المَذمومُ للآباءِ والسَّلف[1]، أو تقديسُ الموروثِ الفكريِّ أو السُّلوكيِّ، الذي لا يَرتكزُ على وحيٍ إلهيٍّ أو علمٍ صَحيحٍ، أو بَصيرةٍ أو حجّةٍ أو بُرهانٍ، يُعتبرُ انحرافًا فكريًّا يُؤثِّرُ على الأمنِ الفكريِّ؛ لأنَّه يُؤدِّي إلى تَعطيلِ العَقلِ، ﴿**حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا**﴾ [المائدة:١٠٤]، ويمَنعُ التَّفكيرَ والإبداعَ، كما يُؤدِّي إلى رفضِ الحقِّ والإعراضِ عن الحقائقِ الجَديدة، وحرمانِ الإنسانِ من العلمِ الجديدِ والنّافعِ والمُنسجمِ معَ الواقعِ الجديدِ، كما يَحولُ دونَ التَّفكيرِ والنَّظرِ النَّقديِّ في المَوروثاتِ القَديمةِ المُتراكمة، التي قد تَحتوي الكثيرَ من الأفكارِ والرُّؤى والنَّظريّات، إمّا الخاطئةِ والضّالّةِ أو التي لم تعدْ صَحيحةً أو صالحةً، بحكمِ التقدُّمِ المَدنيِّ والحضاريِّ، والتطوُّرِ المَعرفيِّ الذي تعرفُه البشريّة.

والأخطرُ والأسوأُ، في هذا التَّقليدِ، تقليدُ الأديانِ والمذاهبِ والملَلِ التي حُرِّفَت عبرَ التّاريخِ، أو التي تُنسَبُ إلى اللهِ والأنبياءِ كذبًا وافتراءً، فكلُّ ذلكَ يُؤدِّي حتمًا إلى الضَّلالِ والعَمى، والانحرافِ عن الصِّراطِ المُستقيمِ، لذلك نجدُ نبيَّ اللهِ إبراهيمَ يَدعو أباهُ (عمّه آزر) إلى تركِ ما كان يَعبدُ من أصنامٍ تقليدًا لآبائه ومجتمعه، وأنْ يتَّبعَه لما عندَه من العلمِ الجديدِ والعقيدةِ الصَّحيحة: ﴿**يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا**﴾ [مريم:٤٣]، وهذا ما وقعَ مع جميعِ الأنبياءِ والرُّسلِ والمُصلحينَ، كانوا دائمًا يَدعونَ أقوامَهم، مُتسلِّحينَ بالعلمِ الذي يَفتقدُه أقوامُهم وآباؤُهم، بسببِ البُعدِ عن رسالاتِ الأنبياءِ السّابقينَ، وتراكُمِ الانحرافاتِ، بسببِ تفسيرِ وتأويلِ الجَهَلةِ وأهلِ الأهواءِ والمُبتدِعة.

وعليه، فتحقيقُ الأمنِ الفكريِّ، حسبَ القرآنِ والسُّنة، يَكمُنُ في اتِّباعِ الوحيِ الإلهيِّ، وتقليدِ الأنبياءِ والأوصياءِ وأهلِ الذِّكرِ والعلمِ بالوَحي، والبَحثِ عن العلومِ والمعارفِ الجديدةِ والرُّؤى العَقلانيّةِ المُنسجمةِ مع مبادئِ الوَحي ومقاصدِه، وفسحِ المجالِ للعقلِ للتَّفكُّرِ والتدبُّرِ والتذكُّر، وأخذِ العِبرَ من الماضي وتراثِ الآباءِ، ونقدِ كلامِهم وآرائِهم، نقدًا علميًّا، وتَمحيصِ كلِّ ما ورثناهُ عنهم، تَحريرًا للعقولِ من أغلالِ التَّقليدِ الصّلبةِ والمُتحجِّرة، وعتقًا للرِّقابِ من أيِّ ضلالٍ أو انحرافٍ قد نقعُ فيه بسببِ هذا التَّقليدِ والاتِّباعِ للآباءِ والسّادةِ والكُبراءِ، وقد حذَّرَنا القرآنُ من

١ - ميّز العلماء والفقهاء بين التقليد المذموم والتقليد الممدوح، وهناك مباحث مهمة حول جواز التقليد في الفروع لغير العالم أو المختص، والنهي عن التقليد في العقائد والأصول.

النَّدم والحَسرةِ يومَ القيامة؛ لأنَّ مَن نتَّبعُهم اليومَ، إذا كانوا على ضلال في الدُّنيا، فسيتخلَّونَ عنّا في الآخرةِ ويَتبرَّؤونَ منّا: ﴿**إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ**﴾ [البقرة:١٦٦]، والمطلوبُ عقلاً وشرعًا هو اتِّباعُ الرُّسلِ وما نزلَ معَهم من الوَحي، واتِّباعُ أئمّة العلم والهُدى من بعدِهم: ﴿**...قال يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ* اتَّبِعُوا مَن لَّا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ**﴾ [يس:٢٠-٢١]، ويقول (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «انظرُوا أهلَ بيتِ نبيِّكُم، فالزَمُوا سمتَهم، واتَّبِعُوا أثرَهُم، فلن يُخرِجُوكُم من هُدًى، ولن يُعيدوكُم في رَدًى»[1].

٦ - اتِّباعُ السّادةِ والكُبراءِ والطَّواغيت:

النَّهيُ عن اتِّباعِ هؤلاءِ أو طاعتُهم جاءَت في القرآنِ مُعلَّلةً بعدّة أسباب، أهمُّها أنَّ اتِّباعَ هذه الفئاتِ الاجتماعيّةِ يُؤدِّي إلى الضَّلال والانحراف عن الحقِّ والسُّقوط في الكُفرِ والشِّركِ والظُّلمِ، والحِرمانِ من اتِّباعِ الحقِّ والوَحي والأنبياءِ والرُّسلِ؛ لأنَّهم مُنحرفونَ وضالُّونَ وظالمونَ، لذلك فهم يَدْعونَ أتباعَهم لتقليدِهم والعَيشِ وفقَ ما يَعتقدونَ وما يَفعلونَ، والنَّتيجةُ هلاكُ الجميعِ في الدُّنيا والآخرةِ، وهذا ما يُؤكِّدُه القرآنُ وهو يُصوِّرُ حالةَ فئة من النّاسِ في الآخرةِ، وهم يتحسَّرونَ على ما وقعوا فيه من ضلال بسبب طاعتهم لرُؤسائهم ومُلوكِهم وقادتهم في الدُّنيا، وهذا ما تَسبَّبَ في ضَلالِهم وانحرافِهم عنِ الحقِّ: ﴿**وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلا**﴾ [الأحزاب:٦٧].

وكذلك اتِّباعُ الطّاغوتِ، وهو كلُّ ذي طُغيانٍ على الله، من شيطان وحاكمٍ كافرٍ ظالم، أو أيِّ مَعبودٍ أو مَتبوعٍ من أئمّةِ الضَّلال، أو مُطاعٍ من دون الله، فطاعتُه أوِ الخضوعُ له واتِّباعُه تُؤدِّي حَتمًا إلى الانحراف والخروج من نور الإيمانِ والحقِّ والعَدل والعلم، إلى ظلمات الكُفرِ والشِّركِ والنِّفاق والظُّلم والجَهلِ، وهذا ما أكَّدَه القرآنُ بقوله: ﴿**وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [البقرة: ٢٥٧].

١ - كاظم محمدي ومحمد دشتي، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، خطبة: ٩٧- ١٢، ص٣٧.

واستخدامُ القرآن الكريم للفظ (الإخراج) له دلالاتٌ تَدبُّريةٌ عميقةٌ جدًّا، إحدى دلالاتها أنَّ هذه الفئةَ تستخدمُ وسائلَ وطُرُقًا متعدِّدةً - قد تكونُ من بينها القوّةُ الماديّةُ- لإخراجِ النّاسِ (التّابعينَ أو الخاضعينَ لسُلطتها)، من (النُّور) لترَمي بهم في متاهات الظَّلام، والمقصودُ بالنُّور هنا عدّةُ أمور (الفطرة، الحقّ، العدل، الصِّراط المُستقيم، الوَحي..إلخ)، وقد ضربَ القرآنُ للنّاسِ مثلاً، فرعونَ الذي طَغى في الأرضِ واستعبدَ قومَه واستخفَّهُم: ﴿**فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ**﴾ [الزخرف:٥٤]، فلم يُؤمنوا بالآيات والمُعجزات الواضحة بل اتَّبعوا أمرَه وعصَوا اللهَ ورسولَه، ﴿**.. فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ**﴾ [هود:٩٧]. فكانَت النَّتيجةُ هلاكَ الجميعِ وشقاءَهُم في الدُّنيا والآخرة: ﴿**فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾ [الزخرف:٥٥].

وهكذا كان مصيرُ كلِّ مَن يَعصي اللهَ ورُسلَه، ويتَّبِعُ كُبراءَه وسادتَه والطَّواغيتَ في كلِّ زمانٍ ومكان. والحلُّ الذي يُقدِّمُه القرآنُ الكريمُ لهذه المُعضلة هو استبدالُ طاعة السّادة والكُبراء بطاعةِ الله ورُسُله، والكُفر بالطّاغوت: ﴿**وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ [آل عمران:١٣٢]، ﴿**.. فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ**﴾ [البقرة:٢٥٦]. ففي طاعةِ اللهِ ورُسلِه النَّجاةُ والأمنُ والسَّكينةُ والرَّحمةُ والفلاحُ في الدُّنيا والآخرة.

٧- الغُلوُّ:

المقصودُ بالغلوِّ في اللُّغة: تَجاوزُ الحَدِّ[١]، بالمُبالغة أو الإفراط والشَّطط، والتَّنطُّع والتَّشدُّد والمُروق،..إلخ، والغُلوُّ في الدِّين يكونُ في المُعتقدات والأقوال، كما يكونُ في جانب الالتزام والسُّلوك والأفعال، وقد حذَّرَ القرآنُ الكريمُ من الغلوِّ في الدِّين بشكلٍ عامٍّ، في المُعتقَد والسُّلوك، تَحذيرًا شديدًا، لِما يترتَّبُ عليه من تَحريف للمُعتقدات وسقوط في الضَّلال والانحراف عن الصِّراط المستقيم، والتأثيرِ سلبًا على الدِّين الواحد، الذي قد يتحوَّلُ إلى أديانٍ مُتعدِّدة، ومذاهبَ

١ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص ٣٦٤.

مُتفرِّقة ومُتنازعة ومُتناحرة، ومُعتقدات باطلة مُتنافرة ومُختلفة، وسُلوكيات يتحكَّمُ فيها الجهلُ والهَوى والتعصُّبُ الأعمى، وكلُّ ذلك بعيدٌ كلَّ البُعد عن مقاصد الوَحي والتَّشريع، ويُؤثِّرُ سلبًا على الأمن الفكريِّ في أيِّ مُجتمعٍ، بل على جميع الأبعادِ الأخرى للأمن: السِّياسيّةِ والاجتماعيّةِ والاقتصادية..إلخ.

وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريم عن أهلِ الكتابِ (اليهود والنَّصارى)، وكيف سقطُوا في الغلوِّ وابتعدوا عن الحقِّ، باعتقادات ابتدعُوها وأقوالٍ نَسبوها لله وأنبيائه، كتأليه الأنبياء والإلحاد في أسماء الله، أو وصف الله -عزَّ وجلَّ- بما لا يَليقُ: يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ..**﴾ [التوبة:٣٠]، لذلك نَهاهُم عن هذا الغلوِّ وأعادَهُم إلى الحقِّ والعَقيدة الصَّحيحة قائلاً: ﴿**يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلا**﴾ [النساء:١٧١]، وكذلك قولهم: ﴿**وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ..**﴾ [المائدة:٦٤].

والقرآنُ، وهو يَنهى أهلَ الكتابِ عن الغلوِّ، إنَّما يُحذِّرُ المسلمينَ كذلك من السُّقوط في الغلوِّ، لكنْ - معَ الأسف - فقد ظهرَ الغلوُّ في الأوساط الدِّينيّة والمذهبيّة والاجتماعيّة المُسلمة بعدَ وفاة (الرَّسول) ﷺ؛ حيثُ ظهرَت فرقةُ الخوارجِ الذينَ تميَّزوا بالتَّشدُّد والمُروق من الدِّين، وقد حذَّرَ (الرَّسولُ الكريم) ﷺ منهم ومن مَنهجهم، فعن أبي سعيد الخدريِّ قال (رسولُ الله) ﷺ: «سَيَكُونُ فِي أُمَّتِي اخْتِلَافٌ وفُرْقَةٌ، قَوْمٌ يُحْسِنُونَ القِيلَ وَيُسِيئُونَ الفِعْلَ، يَقْرَؤونَ القُرْآنَ لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنْ الدِّينِ مُرُوقَ السَّهْمِ مِنَ الرَّمِيَّة، لا يَرْجِعُونَ حَتَّى يَرتَدَّ عَلَى فُوقِه، هُمْ شَرُّ الخَلْقِ والخَلِيقَة، طُوبَى لِمَنْ قَتَلَهُم وقَتَلُوهُ، يَدعُونَ إِلى كِتابِ اللَّه ولَيْسُوا مِنْهُ فِي شَيْءٍ، مَنْ قاتَلَهُمْ كانَ أَولَى بِاللَّهِ مِنهُم»، قَالُوا يا رَسُولَ اللَّه ما سِيماهُم؟ قالَ: «التَّحْلِيقُ»[1].

١ - سليمان بن الأشعث (أبو داود)، سنن أبي داود، ج٧ ص ١٤٣.

كما ظهرَت فرقٌ كثيرةٌ عُرفت بالغُلاة: كلاميّةٌ وصوفيّةٌ وحشويّةٌ تكفيريّةٌ، غالَت في بعض الأئمة وألَّهتْهُم، وهناكَ مَن نسبَ الخوارقَ لبعض رؤساءِ الفِرَقِ والمَذاهب، وهناكَ شَططٌ وإفراطٌ في أقوال فاسدة، ومُعتقدات غريبة (الحلول- الوحدة والاتِّحاد؟!)، وتأويلاتٌ غامضةٌ مُتشابهةٌ، بعيدةٌ عن الإسلامِ وهَديه، كما وُجدَ مَن شطَّ وغالَى في بعض الأفعالِ العباديّة، وابتدعَ شَطحات غَريبة لا عَلاقةَ لها بالشَّعائرِ المَنصوصِ عليها. وكما قُلنا، كان لهذا الغلوِّ آثارُه السَّلبيّةُ الخطيرةُ على المسلمينَ، أفرادًا ومُجتمعات؛ حيثُ تعرَّضَ أمنُهم الفكريُّ والعقدَيّ والاجتماعيُّ والسياسيُّ للخللِ، ويَكفي أن نُطالعَ كتبَ التّاريخِ وكتبَ الفِرَقِ والمِلَلِ والنِّحَلِ، لنَرى ما أصابَ هذه الأمّةَ بعدَ نبيِّها ﷺ من انقسامٍ وتفرُّقٍ وصراعات دَمويّة بينَ هذه الفِرقِ والتيّارات. لذلك - وإلى جانبِ القرآنِ الكريم- فقد حذَّرَتِ السُّنّةُ الشَّريفةُ ورواياتُ أهلِ البيتِ عليهم السلام، من الغلوِّ ومن أسبابه ومَخاطره وتداعياته السَّلبيّة، ودعَت إلى الوسطيّةِ في الأقوالِ والأفعالِ، والحرصِ على الاتِّباعِ والبُعدِ عن الابتداعِ، منها قولُ (الرَّسول) ﷺ: «رجلانِ لا تَنالُهُما شفاعتي، صاحبُ سُلطانٍ عَسوفٌ غَشومٌ، وغالٍ في الدِّينِ مارقٌ»[1]، وعن (الإمام عليٍّ) عليه السلام قال: «هلكَ فيَّ رجلان: مُحِبٌّ غالٍ، ومُبغضٌ قَالٍ»[2]. وعن (الإمام الصّادق) عليه السلام قال: « احذَرُوا على شبابكُم الغُلاةَ، لا يُفسدونَهم، فإنَّهم شرُّ خلقِ اللهِ، يُصغِّرونَ عَظمةَ اللهِ، ويدَّعونَ الرُّبوبيّةَ لعبادِ الله»[3].

٨- الخوضُ في المُتشابِهِ من الوَحي دونَ عِلم:

من الحقائقِ التي أشارَ إليها الوحيُ وأكَّدَها كونُ القرآنِ الكريم يَشتملُ على آياتٍ مُحكمة وأُخَرَ مُتشابهة: ﴿**هُوَ الَّذِي أَنزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُّحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ**﴾ [آل عمران:٧]، وقد اختلفَ المُفسِّرونَ في تعريفِ المَقصودِ بالمُحكَم والمُتشابه من الآيات: على أقوال: «المُحكَمُ ما لا يَحتمِلُ إلا وجهًا واحدًا، والمُتشابهُ ما يَحتملُ وَجهَين فصاعدًا، وقيلَ

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٧ ص٣٠٤٣، حديث: ١٥٢٢٠.
٢ - محمد الريشهي، ميزان الحكمة، ج٧، ص ٣٠٤٣، حديث: ١٥٢٥٧.
٣ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٧ ص ٣٠٤٤، حديث: ١٥٢٦٢.

المُحكَمُ ما يُعلَمُ تَعيينُ تأويله، والمُتشابهُ ما لا يُعلم تَعيينُ تأويله، وقيل: المُحكَمُ ما عُرف المُرادُ منه، إمّا بالظُّهور وإمّا بالتأويل، والمُتشابهُ ما استأثَرَ اللهُ بعلمه، يقولُ (السيِّدُ الحَكيمُ): ولعلَّ هذا التَّفسيرَ يَتلاءَمُ مع ما يَبدو من ظهور هذه الآية: ﴿**.. فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ**﴾ [آل عمران:٧][1]. وقد تحدَّثَ (العلامةُ الطباطبائيُّ) عن مسألة الإحكام والتَّشابُه في القرآن الكريم، وخلصَ إلى أنَّ المقصودَ بالمُحكمات «إتقانُ هذه الآيات من حيثُ عدمُ وجودِ التَّشابُه فيها كالمُتشابهات.. وقد وصفَ المُحكمات بأنَّها أُمُّ الكتاب، والأُمُّ بحسبِ أصلِ مَعناهُ، ما يَرجعُ إليه الشَّيءُ، وليس إلاَّ أنَّ الآيات المُتشابهةَ تَرجعُ إليها، فالبعضُ من الكتاب، وهي المُتشابهاتُ، تَرجعُ إلى بعض آخَرَ وهي المُحكَماتُ.. فالكتابُ يَشتملُ على آيات هي أُمُّ آيات أُخَر.. وأمّا التَّشابُهُ المَذكورُ في هذه الآية،.. فيَدلُّ على أنَّ المرادَ به كونُ الآية بحَيثُ لا يتعيَّنُ مُرادُها لفَهم السّامع بمُجرَّد استماعِها، بل يتردَّدُ بينَ معنًى ومعنًى حتّى يَرجعَ إلى مُحكمات الكتاب، فتُعيِّنُ هي مَعناها وتُبيِّنُها بيانًا، فتَصير الآيةُ المُتشابهةُ عندَ ذلك مُحكَمةً بواسطة الآية المُحكَمة, والآيةُ المُحكَمةُ مُحكَمةٌ بنَفسها, كما أنَّ قولَه: ﴿**الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَىٰ**﴾ [طه:٥]، يَشتبهُ المُرادُ منهُ على السّامع أوَّلَ ما يَسمعُه، فإذا رجعَ إلى مثل قوله تعالى: ﴿**.. لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ**﴾ [الشورى:١١]، استقرَّ الذِّهنُ على أنَّ المرادَ به التسلُّطُ على المُلك والإحاطةُ على الخلق، دونَ التَّمكُّن والاعتمادِ على المكان المُستلزِم للتَّجسُّم المُستحيلِ على الله سبحانه..»[2].

وقد زلَّت أقدامُ أقوامٍ كثيرةٍ أثناءَ الخوضِ في هذه المُتشابهات، ومُحاولةِ تأويلِها بالعَقلِ أو بالهَوى، حيثُ سقطَ عددٌ ممَّن ليس لديه علمُ الكتاب، أو لم يَرجعْ إلى الرّاسخينَ في العلم بالقرآن، في الفِتنة، فهلكَ وأهلَكَ، كما قال (الإمامُ الباقرُ) عليه السلام في حوارِه مع أحدِ المُفسِّرينَ المَشهورينَ[3]،

١ - محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص١٠٣.

٢ - محمد حسين الطباطبائي، تفسير الميزان، ج٣ ص٢٠.

٣ - انظر نص الحوار في: محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، ص١٠٤ وما بعدها. « فقد دخل قتادة على أبي جعفر(الباقر عليه السلام): فقال له: أنت فقيه أهل البصرة، فقال: هكذا يزعمون. فقال(عليه السلام) بلغني أنك تُفسِّر القرآن، قال: نعم - إلى أن قال - يا قتادة، ان كنت قد فسرت القرآن من تلقاء نفسك، فقد هلكت وأهلكت، وإن كنت قد فسرته من الرجال فقد هلكت وأهلكت يا قتادة - ويحك - إنما يعرف القرآن من خوطب به..»

وكذلكَ ما وقعَ مع الأسماء والصِّفات الإلهيّة الواردة في القرآن وغيرها من الألفاظ المُتشابهة، حيثُ ظهرَت فِرَقٌ ومَذاهبُ شتَّى، كلٌّ يَدَّعي أنَّ تأويلَه هو الحقُّ، وغيرَه في ضلالٍ مُبينٍ.

لذلك وقعَ التَّحذيرُ بشدَّة في القرآن والسُّنة، من اقتحام هذا المضمار الخطير من غير أهله، فإنَّ مصيرَه الضَّلالُ والفتنةُ لا محالةَ. والمطلوبُ هو القولُ بعلمٍ ويَقينٍ أو الإمساكُ والبُعدُ عن الخوضِ أو التأويلِ والتَّفسيرِ بجَهلٍ وهوًى، «فعَن زرارةَ بن أعينَ، سألتُ أبا جعفرٍ الباقر (عليه السلام)، ما حقُّ اللهِ على العبادِ؟ قال: أن يَقولوا ما يَعلمونَ، ويَقِفُوا عندَ ما لا يَعلمونَ»[1]. ولذلكَ ذهبَ عددٌ من المفسِّرينَ، للآيةِ الآنفةِ الذِّكرِ، إلى أن موقفَ الرّاسخينَ في العلمِ من الآيات المُتشابهة، هو إمّا تفسيرُها وتأويلُها بعلمٍ، أو الإيمانُ بها وإيكالُ علمِها وتأويلِها الحقيقيِّ إلى الله عزَّ وجلَّ.

٩ - اتِّباعُ الظنِّ:

الظنُّ في اللُّغة اسمٌ لما يَحصل عن أمارةٍ، ومتى قَويَتْ أدَّتْ إلى العلمِ، ومتى ضَعُفَت جدًّا لم يتجاوزْ حدَّ التوهُّمِ، وقد يُفيدُ العلمُ والاعتقادُ الذي يكونُ صَحيحًا أو خطأً، والظنُّ - كما يقول (الأصفهاني):- في كثيرِ الأمورِ مَذمومٌ[2]. وقد وردَ التَّحذيرُ في القرآن الكريم من الظنِّ (الاعتقاد)، الذي لا يُفيد علمًا حقيقيًّا صحيحًا وواقعيًّا، بل يكونُ مجرَّدَ توهُّم بأنَّه علمٌ، أو قريبٌ من العلم، أو يَشتبهُ أنَّه علمٌ، كما يقعُ مع كثير من النّاس: ﴿**وَمَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا**﴾ [النجم:٢٨]، وخطورةُ اتِّباعِ الظنِّ، تكمنُ في ما قد يترتَّبُ عليه من مواقفَ، خصوصًا في مجال الاعتقادِ والفكرِ، مثل: الإيمانِ أو الكفرِ، أو الضَّلالِ والابتداعِ، والسُّقوطِ في الغلوِّ والشَّطط: كما وقع مع بني إسرائيلَ بخصوصِ (نبيِّ الله عيسى) (عليه السلام) وادِّعائهم قتلَه وصَلبَه، يقول القرآن: ﴿**وَقَوْلِهِمْ إِنَّا قَتَلْنَا الْمَسِيحَ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ رَسُولَ اللَّهِ وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِيهِ لَفِي شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا اتِّبَاعَ الظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًا**﴾ [النساء:١٥٧].

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٦ ص١٤، حديث: ٩١١٥.
٢ - الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص٣١٧،

وبناءً على هذا الظنِّ وعدمِ اليَقينِ، ظهرَت ديانةٌ وفِرَقٌ وكنائسُ ومعتقداتٌ ما أنزلَ اللهُ بها من سلطان، وكذلكَ المَواقفُ الخُلُقيّة في العلاقاتِ الاجتماعيّةِ، المَبنيّةِ على الظنِّ أو سُوءِ الظنِّ وما يترتَّبُ عليها من تخاصُمٍ وشِجارٍ وفُرقةٍ وصِراعاتٍ، ومخاطرَ على الأمنِ الاجتماعيِّ أيضًا، ولهذا حذَّرَ الإسلامُ من الظنِّ ونَهى عن اتِّباعه سواءٌ في المُعتقداتِ أو السُّلوكيّات: **﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ﴾** [الحجرات:١٢]. وعن النبيِّ ﷺ قال: «إيّاكُم والظنَّ، فإنَّ الظّنَّ أكذَبُ الكذبِ (أو قال الحديث)[١]، ويقول (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «حُسنُ الظنِّ سلامةُ القلبِ، وراحةُ الدِّينِ»[٢]. وبالتالي، فالمطلوبُ بالنِّسبةِ للمُسلمِ هو أن يَبنيَ مُعتقداتِه ومَواقفه الفكريّةَ والعَقديّةَ على اليَقينِ، أو الظنِّ المفُيد للعلم، وأن يُحسنَ الظنَّ في المواقف الاجتماعيّةِ والمُتعلِّقةِ بالأخلاقِ والسُّلوكِ، وهذا ما يُحقِّقُ الأَمنَينِ مَعًا، الفكريَّ والاجتماعيَّ في المجتمع المُسلم.

١٠ - التكبرُّ والاستكبار:

مِن أخطرِ معوِّقاتِ الأمنِ الفكريِّ التكبُّرُ، وهو من أمراض القلوبِ المُستعصيةِ على العلاجِ، وهو من الأخلاقِ القَبيحة المُردية، وعنوانُ الجَهلِ والوَضاعة، ويترتَّبُ على التَّلبُّسِ بالكبْرِ، جَحْدُ الحقِّ والتكذيبُ به ورَفضُه وتَركُه، بل مُحاربتُه ومُواجهةُ أهلِه ودُعاته؛ لأنَّ التَّكبُّرَ يَخلقُ غشاوةً على القلب، تمَنعُه من الإذعان والانقياد للحقِّ، كما وقعَ لإبليسَ: **﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾** [ص: ٧٥]، والمُتكبِّرُ مَحجوبٌ قلبُه عن الإيمان والهدايةِ والرُّشدِ والمَغفرةِ: **﴿سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَإِن يَرَوْا كُلَّ آيَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا بِهَا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَكَانُوا عَنْهَا غَافِلِينَ﴾** [الأعراف:١٤٦].

والكِبْرِ يكون أكثرَ خطرًا على الأمنِ الفكريِّ عندَما تتلبَّسُ به الجماعةُ أو المَلأُ المُوجِّهُ لها،

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٦، ص٢٣٥٨، حديث: ١١٥٣٨.
٢ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج ٦، ص٢٣٥٧، حديث: ١١٥٣١.

فإنَّ حالةَ الإضلالِ تكونُ عامّةً كما وقعَ معَ قومِ نوحٍ: ﴿**وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا**﴾ [نوح:٧]. وكذلكَ فرعونُ وملؤُه وجنودُه، الذين جَحدوا بكلِّ الآياتِ، فكان مَصيرُهُم الغرَقُ جميعًا. لذلك حذَّرَ القرآنُ الكريمُ وكذلك السُّنةُ، بشدّة من الكبْرِ والاستكبار، وكشَفا عن عَواقبه في الدُّنيا والآخرة، يقول عزَّ وجلَّ: ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَاسْتَكْبَرُوا عَنْهَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ**﴾ [الأعراف:٣٦]، وعن الإمام عليٍّ عليه السلام قالَ: «إيَّاكُم والكِبرَ، فإنَّه أعظمُ الذُّنوبِ وأَلأمُ العيوبِ، وهو حليةُ إبليسَ»[1]. وعلاجُه يَكمنُ في علاج أسبابه، وهي كثيرةٌ، أشهرُها: الجهلُ والحسدُ والحِقدُ، واتِّباعُ الهَوى، والشُّعورُ بالوَضاعة النَّفسيّة والاجتماعيّة، وكلُّ هذه الأمراضِ تحتاجُ إلى تزكيةٍ للنَّفسِ، بالإيمانِ والالتزامِ بالطَّاعاتِ والتفقُّهِ في الدِّينِ، وطلبِ الهدايةِ من الله عزَّ وجلَّ.

١١ - الرُّكون إلى أهل الكتاب (اليهود والنَّصارى) وطاعتُهم:

من التَّحديّات التي واجهَت الإسلامَ، منذُ بزوغِ فجرِه في الجزيرةِ العربيّة، عَداءُ أهلِ الكتابِ السّافرُ ، خصوصًا القبائل اليَّهوديّة، التي كانَت تسكنُ المَدينةَ المنوَّرةَ (يثرب)، فقد أعلنوا مُبكِّرًا عداءَهم ورَفضَهم للدِّين الجديد ولرسوله وللمؤمنينَ به، وتآمَروا على المسلمينَ في يثربَ وغَدروا بهم، معَ ما أعطاهُمُ اللهُ ورسولُه صلى الله عليه وآله من حقوقٍ (في وثيقة المَدينة)؛ حيثُ اعتبرَهُم مواطنينَ في دولة الإسلام، لكنَّهم لم يتوقَّفوا عن التآمُرِ على الإسلام والرَّسولِ صلى الله عليه وآله والمسلمينَ، إلى أن جرى القضاءُ عليهم وإجلاؤُهم عن جزيرةِ العربِ، لكنَّ عداءَهم للإسلام لم يتوقَّفْ، بل استطاعَ بعضٌ منهم ممّن اعتنقَ الإسلامَ أن يُدخلَ في الثَّقافة الإسلاميّة كثيراً من المُعتقداتِ اليَهوديّة المُنحرفة، فيما عُرف بالإسرائيليّات. وقد استمرَّ عداؤُهم للإسلام من ذلك اليوم وإلى الآنَ، لأسبابٍ كثيرةٍ، ليسَ هنا محلُّ الحديثِ عنها بالتَّفصيلِ، من بينِها الحسدُ والتَّنافسُ الدِّينيُّ، وقد رأوا الإسلامَ يَنسخُ مُعتقداتِهم ويَكشفُ الانحرافاتِ التي وقعوا فيها والضَّلالَ الذي سقطوا فيه.

---

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٨ ص٣٥٠٨، حديث: ١٧٢٠٦.

والذي يَهمُّنا هنا، هو التَّحذيرُ الشَّديدُ الذي وردَ في القرآن الكريم من أهل الكتاب وخاصةً اليَهود: ﴿**لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا**﴾ [المائدة:٨٢]، كما كشفَ عن نيّتهم ورَغبتهم في إضلال المسلمينَ وحَرفهم عن دينهم وعَقيدتهم وإعادتهم إلى الجاهليّة والشِّرك، بسبب الحسد وكراهية أن يُنعمَ اللهُ عليهم بالوَحي والنُّبوة دونَهم[1]: ﴿**وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُم مِّن بَعْدِ إِيمَانِكُمْ كُفَّارًا حَسَدًا مِّنْ عِندِ أَنفُسِهِم مِّن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ**﴾ [البقرة:١٠٩]، ولذلك لم يكتفِ القرآنُ بالتَّحذير منهم، بل كشفَ كثيراً من مُؤامراتهم ودَسائسهم وأساليبهم الماكرة في التَّآمر على المسلمينَ ودينهم ورَسولهم، ونَهى بشدّة عن طاعتهم: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ**﴾ [آل عمران:١٠٠].

وهذا العَداءُ للإسلام ورسوله، والرَّغبةُ في إضلال المسلمينَ وإعادتهم إلى الجاهليّة والكُفر، لم تَنته بانتصار الإسلام، بل استمرَّت بطرق وأشكال متعدِّدة، ولا تَزالُ إلى يومنا هذا، فالكتاباتُ الاستشراقيّةُ – مثلاً - التي حاولَت التَّشكيكَ في الإسلام وعقائده وشَريعته وسيرة نبيِّه، يَقفُ وراءَ مُعظمها مُستشرقونَ من اليهود والمَسيحيِّينَ. واليومَ، الإسلامُ هو العدوُّ الأوَّلُ للصهيونيّة وبعض الكنائس الإنجيليّة في العالَم، يَظهر ذلك، ليس فقط في الحرب السياسيّة والعسكريّة على العالم الإسلاميِّ، ولكنْ في الحرب الفكريّة والدِّينيّة والإعلاميّة الشَّرسة التي كانَت لها نتائجُ سلبيّةٌ عميقةٌ على الأمن الفكريِّ والعقديّ في العالَم الإسلاميِّ، لذلك، لا بدَّ من أخذ التَّحذير القرآنيِّ من أهل الكتاب على محملِ الجدِّ، وعلى المسلمينَ أن يُواجهُوا هذا التحدِّي الخطرَ، ببرامجَ وخطط وكتابات وسياسات، واستخدامُ كلِّ الوسائل المُمكنة لمواجهته والتصدِّي له، حمايةً للمُسلمينَ، وفئة الشَّباب على وجه الخصوص، من الضَّلال والانحراف والكفر، الذي يودُّ أهلُ الكتاب أن يُوقعوهُم فيه.

١ - كان ظهور الإسلام في مكة ضربةً قاسية لليهود، فقد انتقلت النبوة من ذرية (إسحاق) و(يعقوب) عليهما السلام، إلى ذرية (إسماعيل بن إبراهيم) عليه السلام.، وهذا ما لم يقبل به اليهود، لذلك تآمروا على الإسلام وتعاونوا مع مشركي مكة للقضاء عليه، ومحاولة اغتيال (الرسول) ﷺ. وفي السيرة النبوية تفاصيل ما وقع بين (الرسول) والمسلمين واليهود في المدينة(يثرب).

١٢ - مصاحبةُ المُنحرفينَ والضّالينَ:

ممّا لا شكَّ فيه أنَّ المصاحبةَ والمُرافقةَ يترتَّبُ عليها - حتمًا - التّأثيرُ والتأثُّرُ، سواء أكان التأثيرُ سلبيًّا أم إيجابيًّا، لذلك نبَّهَ القرآنُ الكريمُ والسُّنةُ الشَّريفةُ على أهميّةِ اختيارِ الصَّديقِ والقَرينِ والرَّفيقِ، سواءٌ في الطَّريقِ أم السَّفرِ أم في طلبِ العلمِ وفي جميعِ نواحي الحياةِ، وأنْ يكونَ هذا الرَّفيقُ والصَّديقُ من أهلِ: العلمِ والمَعرفةِ والتَّقوى والأخلاقِ الحَميدةِ والمُروءةِ وتَهذيبِ النَّفسِ، وحُبِّ الخَيرِ، فمَن كانَت هذه صفاتُه أو يتحلَّى ببعضِها، فإنَّ مصاحبتَه ستَعودُ بالخيرِ والفلاحِ والهدايةِ والرُّشدِ وسلوكِ الطَّريقِ المُستقيمِ في الدُّنيا والآخرةِ، أمّا إذا كان الرَّفيقُ والصّاحبُ لا يتحلَّى بهذه الصِّفاتِ أو ببعضِها، فإنَّ خطرَ الانحرافِ والضَّلالِ وسلوكِ سبيلِ الغوايةِ والسُّقوطِ في المَهالكِ، يكون محتملاً إن لم يكنْ حتميًّا، وهذا ما أشارتْ إليه الآيةُ الكريمةُ: ﴿**وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَىٰ يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا * يَا وَيْلَتَىٰ لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا * لَّقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلْإِنسَانِ خَذُولا**﴾ [الفرقان:٢٧-٢٨-٢٩]، إنَّ الرَّفيقَ أو الصَّديقَ أو القَرينَ السَّيِّئَ والمُنحرفَ، يكون بمثابة الشَّيطانِ يُوسوسُ ويُزيِّنُ ويأمرُ بالفَحشاءِ والمُنكَرِ، ويُضِلُّ؛ لأنَّه هو نفسُه ضالٌّ مُنحرفٌ.

وهذا ما نبَّهَت إليه السُّنَنُ والرِّواياتُ أيضًا: يقول (الرَّسولُ) ﷺ «المَرءُ على دينِ خليلِه، فلْيَنظرْ أحدُكُم مَن يُخالِلُ»[١]. فالمَطلوبُ بالنِّسبةِ للإنسانِ المُسلمِ هو اختيارُ أفضلِ الأصدقاءِ، علماً وورَعًا، وخُلقًا وتَقوى ومودّةً، ومَن يُذكِّرونَه باللهِ ويَنصحونَه ويُرشِدونَه إلى الطَّريقِ المُستقيمِ، يقولُ -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا**﴾ [الكهف:٢٨]، ويقولُ (الإمامُ عليٌّ) عليه السلام: «صاحِبِ العُقلاءَ، وجالسِ العُلماءَ، واغْلبِ الهَوى، تُرافِقِ المَلأَ الأعلى»[٢].

وقد كشفَ كثيرٌ من الدِّراساتِ، الخاصّةِ بانحرافِ الشَّبابِ، أنَّ هذا الانحرافَ جاءَ بسببِ صُحبةِ

١ - محمد الريشهري، ميزان الحكمة، ج٥ ص ٢٩٧، حديث: ١٠٢٢١.
٢ - محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، ص ٤١٧.

رفيقٍ سيِّءٍ أو مُنحرفٍ، أو يتَّبِعُ مذهبًا أو تيارًا فكريًّا ضالًّا، وكذلكَ جرائم الأحداث - بل حتّى الكبار- فقد تورَّطَ البعضُ منهم في جرائمَ خطيرةٍ بسبب الرِّفقةِ السَّيئةِ، وهذا الأمرُ يَنعكِسُ سَلبًا على الأمن الفكريِّ والأمنِ الاجتماعيِّ معًا.

١٣ - اتِّباع السُّبل وسبيلِ غيرِ المؤمنينَ:

نَهى القرآنُ الكريمُ بشدّةٍ عن اتِّباعِ السُّبلِ، بعدَ ظهورِ الإسلامِ ونزولِ القرآن، والمقصودُ بها الأديانُ المنحرفةُ والاتِّجاهاتُ والفِرَقُ والأهواءُ والمَناهجُ والتَّفسيراتُ المُخالفةُ للصِّراطِ المُستقيمِ، المُتمثِّلِ في الإسلام، وعقيدةِ التَّوحيدِ والإيمانِ بالوحيِ والالتزامِ بما نزلَ فيه من قِيَمٍ وأحكامٍ ومَبادئَ، وطاعةِ الله ورسولِه في كلِّ أمْرٍ ونَهي..إلخ، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣]. وخطورةُ (السُّبلِ) على الأمن الفكريِّ والاجتماعيِّ واضحةٌ؛ لأنَّ التَّفرُّقَ في الدِّينِ، يُحوِّلُ الاختلافَ إلى مجموعة من الأديان والفِرَقِ والمَذاهبِ والتَّياراتِ المُتنافسةِ والمُتصارعةِ، وهذا ما يُؤثِّرُ سلبًا على الحقائق الدِّينيّة أوَّلًا، ثم على الوحدةِ الدِّينيّةِ والاجتماعيّةِ للأمّةِ ثانيًا، بتحوُّلِ هذا الاختلاف إلى نزاعٍ وتحارُبٍ اجتماعيٍّ وسياسيٍّ..إلخ. لذلك، فالمطلوبُ هو الاعتصامُ بحبلِ الله، وتجنُّبُ التفرُّقِ باتِّباعِ هذه السُّبلِ: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا..**﴾ [آل عمران:١٠٣]. وهذا ما أكَّدَت عليه السُّنّةُ أيضًا: فعَن (جابرِ بن عبد الله)، قال كنَّا عندَ النَّبيِّ ﷺ، فخَطَّ خطًّا، وخطَّ خطَّينِ عن يمينه، وخَطَّ خطَّينِ عن يساره، ثمَّ وضعَ يدَهُ في الخطِّ الأوسَط، فقالَ: هذا سبيلُ اللَّه ثمَّ تَلا هذه الآيَةَ: ﴿**وَأَنَّ هَٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ [الأنعام: ١٥٣][1].

وإلى جانب النَّهي عن اتِّباعِ (السُّبُلِ)، نَهى القرآنُ الكريمُ كذلك، عن اتِّباعِ ما أسماهُ سبيلَ غيرِ المسلمينَ، ﴿**وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ**

١ - محمد بن يزيد (ابن ماجة)، صحيح ابن ماجه، باب اتِّباع سنة رسول الله ﷺ، ج١ ص٨ رقم الحديث ١١.

مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥]، وسبيلُ المؤمنينَ هنا هو طريقُ الإسلامِ بعَقائدِه وتَشريعاتِه وقِيَمِه، وهو طريقُ الحقِّ، فمَن يَختَرْ غيرَ هذا السَّبيلِ، ويتَّبِعْ سبيلَ الكُفارِ أو المُنافقينَ، أو سبيلَ أهلِ الكتابِ وغيرِهِم من أهلِ الشِّركِ والضَّلالة، أو يُوالِهم أو يُطِعْهم، فإنَّه سيَنحرفُ حَتمًا عنِ الصِّراطِ المُستقيم، ولذلك حذَّرَ القرآنُ من هذه السُّبُلِ أيضًا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٩]، وقوله -تعالى-: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَىٰ أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة:٥١].

وقد تحدَّثَ القرآنُ الكريمُ عن العواقبِ السَّلبيّةِ لاتِّباعِ الكُفّارِ والمُنافقينَ ومُوالاتِهم، أو الرُّكونِ لأهلِ الفسقِ والفُجورِ، أو التورُّطِ في البَغي والعُدوانِ، وتأثيرِ ذلك على الأمنِ الفكريِّ والاجتماعيِّ، وكذلك عن مخاطرِ تَعطيلِ شَعيرةِ الأَمرِ بالمَعروفِ والنَّهي عن المُنكَرِ، لدَورِها في المُساعدةِ على تحقيقِ الأمنِ بشكلٍ عامٍّ، في الدَّولةِ المُسلمةِ، وغيرِها من المُعوِّقاتِ الأُخرى، التي لم يتَّسعِ المجالُ للحديثِ عنها بالتَّفصيلِ في هذه الدِّراسة.

الخاتمة

بعدَ التعرُّفِ على مَفهومِ الأمنِ الفكريِّ في القرآنِ والسُّنةِ النَّبويّة، واستعراضِ أهمِّ مُعوِّقاتِه وكيفيّةِ مواجهتِها، فإنَّ ضمانَ تَحقيقِ الأمنِ الفِكريِّ والعقدَيّ في المَجتمعِ الإسلاميِّ ومن ثَمَّ تحقيقِ الأمنِ على جميعِ المُستوياتِ، يَقتضي من المسلمينَ، أفرادًا ومُجتمعاتٍ، اتِّباعَ (هدى الله)، الذي أكَّدَ عليه الوَحيُ المُنزَّلُ بعدَ نزول (آدمَ وحوّاءَ) إلى الأرضِ وبدءِ تجربةِ إقامةِ الخلافةِ في الأرض: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [البقرة:٣٨]. ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [طه:١٢٣].

فاتِّباعُ هُدى الله - بالنِّسبةِ للإنسان- يَحولُ دونَ وُقوعِه في الخوفِ والحُزنِ والضَّلالِ والشَّقاء، فتحلُّ الطّمأنينةُ والسَّكينةُ والأمنُ النَّفسيُّ والرُّوحيُّ. وقد وضعَ الوحيُ الإلهيُّ برنامجًا تفصيليًّا

مُتكاملاً لتحقيق هذا الأمن على جميع المُستويات. فاتِّباعُ هُدى الله يَعني: الإيمانَ بالله ورُسله وكتبه [التغابن:٨]، واتِّباعَ الوَحي والحقِّ: [الأعراف:٣]، واتِّباعَ الأنبياء والرُّسلِ والأوصياء، وكلَّ مَن يَهدي إلى الحقِّ، وطاعتَهم واتِّخاذَهُم قدوةً وأُسوةً في كلِّ شيءٍ يتعلَّقُ بالحياة [يس:٢٠-٢١]، [الأحزاب:٢١]، [يونس:٣٥]. والاحتكامَ إلى شريعة السَّماء والحُكم بها، لأنَّ مَن لم يَحكُمْ بها فسيسقطُ في الكُفر والظُّلم والجاهليّة، [المائدة:٤٩]، [المائدة:٤٥]، [لمائدة:٥٠]. والجمعَ بينَ الإيمانِ والعملِ الصّالحِ: [البقرة:٢٧٧]...إلخ.

أمّا مَن خالفَ أو حادَ عن هذا الهُدى، فلم يُؤمِنْ بالله والغَيب، ولم يتَّبِع الوَحيَ والرُّسلَ ولم يَقتَدِ بالأنبياء والأوصياء، وأعرضَ عن ذكر الله وعبادته، فإنَّ النَّتيجةَ الحَتميّةَ هي: المَعيشةُ الضَّنكةُ، يقول -عزَّ وجلَّ-: ﴿**وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَىٰ**﴾ [طه:١٢٤]، قال (العلامة الطباطبائيُّ): «مَعيشةً ضَنْكًا» أي مَعيشةً دُنيويّةً ضيِّقةً؛ لأنَّه كلَّما حصَّلَ منها واقتناها لم يُرضِ نفسَه بها، وانتزَعَت إلى تحصيلِ ما هو أزيَدُ وأوسعُ، من غيرِ أن يقفَ منها على حدٍّ، فهو دائمًا في ضيق صدرٍ وحنقٍ ممّا وُجِدَ، مُتعلِّقُ القلبِ بما وراءَه، معَ ما يَهجمُ عليه من الهَمِّ والغَمِّ والحزنِ والقلقِ والاضطرابِ والخوفِ من نزولِ النَّوازِلِ، وعُروضِ العَوارضِ، مِن موتٍ ومرضٍ وعاهة... إلخ»[1].

١ - محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج١٤ ص ٢٢٥.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم

- إبراهيم بن محمد الفقي، الأمن الفكري: المفهوم- التطورات – الإشكالات، بحث مقدم للمؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري، الرياض، (٢٢-٢٥ جمادى الأولى- ١٤٣٠هـ، منشور على الرابط التالي: https://staffsites.sohag-univ.edu.eg/
- أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر، بيروت، (بل تاريخ الطبعة).
- إيمان أحمد عزمي، مفهوم الأمن الفكري بين المحددات العلمية والإشكالات المنهجية المعاصرة: دراسة تحليلية للتعريفات والدور المجتمعي للمؤسسات، من أوراق المؤتمر الوطني الأول للأمن الفكري، (٢٢-٢٥ جمادى الأولى ١٤٣٠هـ)، منشور على الرابط التالي: https://dr-faisal-library.pub.sa/
- جميل صليبا، المعجم الفلسفي، بيروت، دار الكتاب اللبناني، ط- ١٩٨٢.
- خلدون سعود القرالة، الأمن الفكري من منظور القرآن الكريم: دراسة موضوعية، رسالة ماجستير من جامعة مؤته، نوقشت سنة ٢٠١٠.
- الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن في غريب القرآن، المكتبة الرضوية، قُم المشرفة، ط١ ١٣٦٢ هـ. ش.
- سليمان بن الأشعث (أبو داود) سنن أبي داود، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرون، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١- ٢٠٠٩م.
- طلال مشعل، مفهوم الأمن في القرآن الكريم، منشور على موقع موضوع، على الرابط التالي: https://mawdoo3.com
- عبد اللطيف بيركوب، مصطلح العقل في القرآن الكريم ووسائل حفظه: دراسة قرآنية مقاصدية،

مجلة التراث، عدد ٢٥ سنة ٢٠٢٠م، منشور على الرابط التالي: https:ll journalarticle. ukm.my

- علي بن فايز الحجني، وظيفة الأسرة في تدعيم الأمن الفكري، قاعدة البيانات، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة، ط١- ٢٠٠٤م.
- https://dr-faisal-library.pub.sa//
- كاظم محمدي ومحمد دشتي، المعجم المفهرس لألفاظ نهج البلاغة، دار الأضواء بيروت، ط١- ١٩٨٦.
- محمد الريشهري، العلم والحكمة في الكتاب والسنة، مؤسسة دار الحديث الثقافية، قم المشرفة، ط١- ١٣٧٦ هـ.ش.
- محمد الريشهري، ميزان الحكمة، دار إحياء التراث العربي: بيروت، ط١- ٢٠٠١م.
- محمد بن عيسى الترمذي، سنن الترمذي، المحقق: أحمد بن محمد شاكر، بيروت، دار الكتب العلمية، (بدون سنة الطبع).
- محمد بن مكرم (ابن منظور)، لسان العرب، بيروت، دار صادر، ط١-٢٠٠٣م.
- محمد بن يزيد (ابن ماجة)، صحيح ابن ماجة، تحقيق شعيب الأرناؤوط وآخرين، دار الرسالة العالمية، دمشق، ط١- ٢٠٠٩ م.
- محمد تقي الحكيم، الأصول العامة للفقه المقارن، مؤسسة أهل البيت (ع) للطباعة والنشر، ط٢-١٩٧٩.
- محمد حسين الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، دار الكتاب الإسلامي، قم المشرفة، ط٣- ١٩٧٢م.
- محمد محمد نصير، الأمن والتنمية، مكتبة العبيكان، االرياض، ط١-١٤١٣هـ.

- نايل ممدوح أبو زيد، الأمن الفكري في القرآن، رسالة دكتوراه، جامعة أم درمان الإسلامية، نوقشت سنة ١٩٩٤-١٩٩٥م.
- نبيل بن نذير الشرايري، الأمن الفكري في ضوء القرآن الكريم، رسالة دكتوراه، جامعة اليرموك، كلية الشريعة، منشورة على الربط التالي: https://archive.org/details